بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة هود (١)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى-: تفسير سورة هود -عليه السلام-، وهي مكية.

روى أبو عيسى الترمذي عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- قال: قال أبو بكر: يا رسول الله قد شبت، قال: ((شيبتني هود، والواقعة، والمرسلات، وعم يتساءلون، وإذا الشمس كورت))[١].

وفي رواية: ((هود وأخواتها))[٢].

بسم الله الرحمن الرحيم

{الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ * أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللَّهَ إِنَّنِي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ * وَأَنْ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعاً حَسَناً إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ * إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}[سورة هود(١-٤)].

قد تقدم الكلام على حروف الهجاء في أول سورة البقرة بما أغنى عن إعادته هنا، وبالله التوفيق.

وأما قوله: {أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ} أي: هي محكمة في لفظها، مفصلة في معناها، فهو كامل سورة ومعنى، هذا معنى ما روي عن مجاهد وقتادة واختاره ابن جرير.

ومعنى قوله: {مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ} أي: من عند الله الحكيم في أقواله وأحكامه، الخبير بعواقب الأمور، {أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللَّهَ} أي: نزل هذا القرآن المحكم المفصل لعبادة الله وحده لا شريك له، كقوله تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ} [سورة الأنبياء(٢٥)]، وقال: {وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُواْ اللّهَ وَاجْتَنِبُواْ الطَّاغُوتَ} [سورة النحل(٣٦)].

وقوله: {إِنَّنِي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ} أي: إني لكم نذير من العذاب إن خالفتموه، وبشير بالثواب إن أطعتموه، كما جاء في الحديث الصحيح أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- صعد الصفا فدعا بطون قريش،

---

١ - رواه الترمذي برقم (٣٢٩٧)، وقال: هذا حديث حسن غريب لا نعرفه من حديث ابن عباس إلا من هذا الوجه، كتاب تفسير القرآن عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، باب ومن سورة الواقعة، والحاكم في المستدرك (٣٧٤/٢)، برقم (٣٣١٤)، وقال: هذا حديث صحيح على شرط البخاري و لم يخرجاه، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة برقم (٩٥٥)، وفي صحيح الجامع برقم (٣٧٢٣).

٢ - رواه الطبراني في المعجم الكبير (١٢٣/٢٢)، برقم (٣١٨)، وقال الألباني: "سنده جيد" كما في السلسلة الصحيحة برقم (٩٥٥).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الأقرب ثم الأقرب، فاجتمعوا، فقال: ((يا معشر قريش أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلاً تصبحكم ألستم مصدقيّ؟))، فقالوا: ما جربنا عليك كذباً، قال: ((فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد))[٣].

وقوله: {وَأَنْ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعاً حَسَناً إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ} أي: وآمركم بالاستغفار من الذنوب السالفة، والتوبة منها إلى الله -عز وجل- فيما تستقبلونه، وأن تستمروا على ذلك، {يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعاً حَسَناً} أي: في الدنيا، {إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ} أي: في الدار الآخرة، قاله قتادة، كقوله: {مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً} [سورة النحل(٩٧)] **الآية.**

وقوله: {وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ}، هذا تهديد شديد لمن تولى عن أوامر الله تعالى وكذّب رسله، فإن العذاب يناله يوم القيامة لا محالة، {إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ} أي: معادكم يوم القيامة، {وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}: أي هو القادر على ما يشاء من إحسانه إلى أوليائه وانتقامه من أعداءه، وإعادة الخلائق يوم القيامة، وهذا مقام الترهيب، كما أن الأول مقام ترغيب.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فأقرب الأقوال في الحروف المقطعة أنها حروف تهجٍّ لا معنى لها في نفسها، وإنما تشير إلى الإعجاز، وأن هذا القرآن مركب من هذه الحروف التي تركبون منها الكلام، وأنتم عاجزون عن الإتيان بمثله، وعلى هذا جماعة من المحققين، ويستدل لهذا بما ورد من ذكر القرآن بعد ذكر هذه الحروف في عامة المواضع، إلا في نحو موضعين، ويمكن أن يحمل في هذين الموضعين على الوحي أو القرآن، فهذا القرآن مركب من هذه الحروف {الم * ذَلِكَ الْكِتَابُ} [سورة البقرة(١-٢)]، {الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ}، {الم * اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ * نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ} [سورة آل عمران(١-٣)]، وهكذا في سائر المواضع، ومن أوضحها {كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ}، وحينما يقال بأن هذه الحروف حروف تهجٍّ لا معنى لها لا يرد على الذهن أن في القرآن شيئاً ليس له معنى، يعني أنه حشو، فالقرآن منزه عن الحشو، لكن هذه حروف تهجٍّ، وحروف التهجي في لغة العرب ليس لها معنى، لكن ليس في القرآن كلام مركب لا معنى له، والحروف منها حروف معانٍ مثل حروف الجر كـ من وإلى وعن وعلى، ومنها ما هي حروف مبانٍ مثل الفاء والسين والراء، فبالنظر إلى هذه الحروف ليس لها معنى في نفسها، وإنما يركب منها الكلام، أما حروف المعاني فكما يقول النحاة: الكلام مكون من اسم وفعل وحرف جاء لمعنى، ثم يعرفون الحرف: ما دلّ على معنى في غيره ولم يقترن بزمن، وهذا فيه نظر، وإن كان مشهوراً عند النحاة، فهو له معنى في نفسه، ففي تدل على الظرفية، وعلى تدل على العلو، ونحو

---

٣ - رواه البخاري برقم (٤٥٢٣)، كتاب التفسير، باب قوله: {إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ} [سورة سبأ(٤٦)]؛ ومسلم برقم (٢٠٨)، كتاب الإيمان، باب في قوله تعالى: {وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ}[سورة الشعراء(٢١٤)]، من حديث ابن عباس -رضي الله عنهما- ولفظهما قال: صعد النبي -صلى الله عليه وسلم- الصفا ذات يوم فقال: ((يا صباحاه))، فاجتمعت إليه قريش قالوا ما لك؟ قال: ((أرأيتم لو أخبرتكم أن العدو يُصبحكم أو يمسيكم أما كنتم تصدقونني؟))، قالوا: بلى، قال: ((فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد))، فقال أبو لهب: تبا لك، ألهذا جمعتنا؟ فأنزل الله: {تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ}.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

هذا، فحروف التهجي لا معنى لها في نفسها قطعاً، فليس في القرآن شيء مما يرد في كلام العرب لمعنى وليس له معنى، لا يوجد فيه حروف معانٍ ليس لها معنى، ولا يوجد فيه أسماء ولا أفعال ولا تراكيب ليس له لها معنى، قال صاحب مراقي السعود:

ولم يكن في الوحي حشو يقع..

يقول -رحمه الله- في معنى: {أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ}: اختلف المفسرون في معنى الإحكام؛ وبناءً على ذلك وقع الاختلاف في معنى {ثُمَّ} هل هي للترتيب، يعني الترتيب من حيث الوقوع، حصل كذا ثم بعد ذلك حصل كذا، من أهل العلم من يقول: {أُحْكِمَتْ} أي إن أولها محكم، ذكر فيه هذه القضايا الكلّية، أمرهم بالاستغفار والتوبة وما إلى ذلك، ثم بعد ذلك فصّل بما حصل بين النبي -صلى الله عليه وسلم- وأعدائه، وما حصل لأعداء الرسل -عليهم الصلاة والسلام-، فقالوا: هذا التفصيل، فعلى هذا التفسير تكون {ثُمَّ} للتعقيب، يعني أن أولها أحكم ثم بعد ذلك جاء التفصيل فيما وقع بين النبي -صلى الله عليه وسلم- وبين هؤلاء الكفار، ومن أهل العلم من فسر الإحكام بمعنى أنها لم تنسخ، ومن أهل العلم من ذكر لها معنى آخر في الاستعمال كشيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله-، لكن المشهور أنها ترجع إلى معنى المنع، فإذا قلت: الحكمة، فهي صفة تمنع صاحبها ومن تحقق بها من الشطط في القول، والخطل في الرأي؛ ولذلك يقولون: الحكمة هي الصواب في القول والعمل، وإذا قلت: هذا الكلام محكم، بمعنى أنه منع منه النقص والعيب والخلل في ألفاظه وفي معانيه، {كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ}، فالله -عز وجل- وصف القرآن بأنه محكم، {اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَّثَانِيَ} [سورة الزمر(٢٣)]، ووصفه بالتشابه يعني يشبه بعضه بعضاً في الحسن والبلاغة والفصاحة، ووصفه أيضاً بأنه محكم باعتبار أنه في غاية الفصاحة والبلاغة والإحكام، لا يتطرق إليه عيب ولا نقص ولا خلل لا في ألفاظه ولا معانيه، وقال في آل عمران {مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ} [سورة آل عمران(٧)]، فالمحكمات هي التي تقابل الآيات المنسوخة، ومن أهل العلم من نظر إلى هذا وقال: {أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ} أي: لم تنسخ، ومنهم من نظر إلى أصل المعنى اللغوي من الإحكام، كما ذهب إليه الحافظ ابن كثير -رحمه الله-؛ لأن الإحكام الذي يقابل النسخ هو معنىً خاص، فالحافظ ابن كثير -رحمه الله- قال: {أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ}، أي: هي محكمة في لفظها، مفصلة في معناها، محكمة في لفظها يعني أن لفظها في غاية الإحكام، بالغٌ في الفصاحة والبلاغة غايته، لا يتطرق إليه خلل في تراكيبه ولا في ألفاظه، ليس فيه لفظ ينبو عنه السمع، ولا يعاب، ولا يتطرق إليه لحن أوخلل، ومن جهة المعنى أيضاً ليس فيه تناقض وتعارض؛ ولهذا نفى الله -عز وجل- عنه الريب بقوله: {ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ} [سورة البقرة(٢)]، ولا يدعو للريب، وإنما يدعو إلى كمال اليقين، وفيه كمال اليقين.

و{ثُمَّ} في قوله: {أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ} ليست للترتيب والتعقيب، فمن جهة الوقوع حصل الإحكام ثم بعد ذلك حصل التفصيل، وتكون للترتيب في مثل {اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ}، أي: استغفروا ربكم ومع ذلك توبوا إليه، كما قال تعالى أيضاً: {ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا} [سورة البلد(١٧)] يعني: فوق ذلك؛ لأن الإيمان أصلاً يكون سابقاً، وقوله: {فُصِّلَتْ} أي: معانيها، و{أُحْكِمَتْ} ألفاظها، يقول: "**هذا معنى ما روي عن مجاهد وقتادة واختاره ابن جرير**"، وإن كانت عبارة مجاهد وقتادة تختلف بعض الشيء عما ذكره الحافظ ابن كثير

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

لكن عند التأمل هي ترجع إلى هذا المعنى، وقول ابن جرير –رحمه الله: إنها أحكمت ألفاظها يعني من الباطل منعت، ثم فصلت بالأمر والنهي تشبه عبارات بعض السلف، وابن كثير -رحمه الله- يقول: "**محكمة في لفظها مفصلة في معناها**"، وكلام ابن كثير لا يعارض هذا ولا يعارض الأقوال التي أشار إليها عن السلف، وكلامه مجمل، إذا كانت محكمة في لفظها فمعنى ذلك أنها منعت من الباطل، في عبارات قوية فصيحة رصينة محكمة، والمعاني مفصلة، المعاني فيها الأمر والنهي، كما قال ابن جرير، فيها القصص والأمثال، فيها الأخبار، والتفاصيل التي تتعلق بالعقائد، صفات الله -عز وجل-، دلائل القدرة والوحدانية، وما أشبه ذلك من الأمور، كل هذا من التفاصيل التي جاءت في هذا القرآن، واختاره ابن جرير -رحمه الله-.

يقول: {مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ * أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللَّهَ} بعض أهل العلم يقول: {أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللَّـهَ} مفعول له، حذفت منه اللام، يعني ،{كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ} لئلا تعبدوا إلا الله، وهذا القول له وجه من النظر، وبعضهم يقول: إن "أنْ" هذه في {أَلاَّ تَعْبُدُوا} مفسرة، و "أن" المفسرة هي التي تأتي بعد القول الذي لم تذكر حروفه أي إذا ذكر بمعناه تكون همزة "أن" مفتوحة كقوله: {فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا} [سورة مريم(١١)]، فكلمة أوحى فيها معنى القول، وإذا ذكر القول بحروفه تأتي همزة "إن" مكسورة كقول الله: {قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ} [سورة مريم(٣٠)]، وقوله: {قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاء} [سورة البقرة(٦٩)]، فالتفصيل فيه معنى القول، فمن نظر إلى هذا قال: إن "أنْ" هذه هي المفسرة، {كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ}، ثم جاء تفسير هذا التفصيل أو الإحكام أو هما معاً {أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللَّهَ}، وبعضهم يقول: {كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ}، بألا تعبدوا إلا الله، وهذا قول الكسائي، وابن جرير يقول قريباً من هذا القول، لكنه يجعل ذلك مرتبطاً بالتفصيل، {كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ} بألّا تعبدوا إلا الله، وقيل غير هذا.

وقوله: {فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ} يعلم بعواقب الأشياء، وخباياها وخفاياها، فلا يتطرق إلى تفصيله وإحكامه وأمره ونهيه شيء من الشك؛ لأن الإنسان عادة يرتاب ويشك من إحدى جهتين حينما يؤمر بشيء، إما أنه يتخوف من جهة نقص العلم، أن الذي أمره معلوماته قد تكون خطأ، لأن هذا الشيء الذي أمر به في نفسه غير صحيح، أو يتخوف من جهة الحكمة، قد يكون هذا الشيء الذي تقوله الآن صحيحاً لكن ليس في هذا الوقت، مع أنه في نفسه حق، لكن الله -عز وجل- لا يرِد عليه لا هذا ولا هذا، لا نقص في العلم ولا في الحكمة، فهو يضع الأشياء في مواضعها، ولذلك إذا أمر بشيء ينبغي أن يُتلقى مباشرة، بكل ثقة، ولا يقال: هذه ما تصلح، هذه تؤدي إلى مفاسد، هذا يمكن أن يرد في كلام الناس، غير الوحي تقول فيه: قد يخطئ فلان فهم القضية، قد يقول كلاماً حقاً لكن لا يصلح لفلان من الناس، لا يصلح للبيئة الفلانية، لا يصلح لكذا..

قال ابن كثير -رحمه الله- في قوله: {أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللَّهَ} "**أي: نزل هذا القرآن المحكم المفصل لعبادة الله وحده لا شريك له، كقوله:** {وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ} **[سورة الأنبياء(٢٥)]**، وهذا تفسير جيد، والآيات في هذا المعنى كثيرة، فجاء الأمر بالتوحيد وغيره، لكنه ذكر التوحيد لأن كل ما يذكر من الأمر والنهي عائد إليه، فيذكر القصص والأمثال وغير ذلك، من أجل أن يتعظوا ويعتبروا وينقادوا ويستجيبوا لله -تبارك وتعالى- إذا دعاهم لعبادته، وما يذكره من أسمائه وصفاته ودلائل قدرته كل ذلك راجع إلى التوحيد، ولهذا قال الشافعي -رحمه الله-: "جميع ما تقوله الأمة شرح للسنة، وجميع

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

السنة شرح للقرآن، وجميع القرآن شرح لأسماء الله وصفاته"، ولهذا قيل: إن سورة الفاتحة ترجع إليها جميع معاني القرآن، وأن جميع معاني الفاتحة ترجع إلى قوله: {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ} [سورة الفاتحة(٥)]، وقوله: {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ} هو عين التوحيد، فرجع إلى التوحيد، ولهذا قال شارح الطحاوية: إن التوحيد هو أول الأمر وآخره. وقوله: {وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى} من أهل العلم من يقول: يستغفرون عما مضى ويتوبون في المستقبل، وقيل غير ذلك، وقوله -تبارك وتعالى-: {يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا}، أصل الإمتاع الإطالة؛ ولهذا تقول: متّعنا الله بك، يعني أطال الله بقاءك ونفْعك، فهذا أصل الإمتاع، {يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا}، "متاعاً حسناً" يعني الحياة الطيبة الكريمة وطيب العيش، وسعة الرزق، {يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا}، **قال**: "**أي في الدنيا**"، {إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى}، أي: الموت، وبعضهم يقول: إلى القيامة، والأقرب أنه إلى الموت؛ لأن الإنسان إذا مات قامت قيامته، وعندئذ يلقى جزاءه بعد ذلك، {وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ}، كقوله تعالى كما ذكر الحافظ ابن كثير -رحمه الله-: {مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً} [سورة النحل(٩٧)] يعني: بعضهم قال: في الدنيا، وبعضهم قال في الآخرة، ولا مانع أن يكون ذلك جميعاً في الدنيا والآخرة، فالحياة الطيبة تحصل له في الدنيا وتحصل له في الآخرة، وقال شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله-: "إن في الدنيا جنة من لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة"[٤]، فهذا هو الأقرب -والله تعالى أعلم-، وهذه الآية نظير قول هود -صلى الله عليه وسلم-: {وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ} [سورة هود(٥٢)]، فزيادة القوة وإدرار الأرزاق في الدنيا، من قوله: {يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا}، كما قال الله -عز وجل-: {وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُواْ وَاتَّقَواْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ} [سورة الأعراف(٩٦)]، وكذلك في قول نوح -صلى الله عليه وسلم-: {فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا * يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا * وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا} [سورة نوح(١٠-١٢)]، هذا كله من المتاع الحسن الذي يكون في الدنيا، وما يعقبه في الآخرة من الجنة والنعيم.

{أَلا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ} [سورة هود(٥)].

قال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: كانوا يكرهون أن يستقبلوا السماء بفروجهم وحال وقاعهم، فأنزل الله هذه الآية، روى البخاري من طريق ابن جرير عن محمد بن عباد بن جعفر أن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- قرأ: "أَلا إِنَّهُمْ تَثْنُوني صُدُورُهُم"، فقلت: يا أبا العباس ما "تَثْنُوني صُدُورُهُم"؟ قال: الرجل كان يجامع امرأته فيستحي، أو يتخلى فيستحي، فنزلت: "أَلا إِنَّهُمْ تَثْنُوني صُدُورُهُم"[٥]، وفي لفظ

---

٤ - انظر: موقف ابن تيمية من الأشاعرة (١/١٨٠)، والشهادة الزكية في ثناء الأئمة على ابن تيمية، للكرمي (٣٤).

٥ - رواه البخاري برقم (٤٤٠٥)، كتاب التفسير، باب {أَلَا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ}.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

آخر له قال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: أناس كانوا يستحيون أن يتخلوا فيفضوا إلى السماء، وأن يجامعوا نساءهم فيفضوا إلى السماء فنزل ذلك فيهم[٦].

وروى البخاري عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: {يَسْتَغْشُونَ} يغطون رءوسهم[٧].

هذا المعنى الذي ذكره الحافظ ابن كثير -رحمه الله- عن ابن عباس في سبب النزول له حكم الرفع؛ لأنه بلفظ صريح، والمعنى أن هؤلاء الناس {يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ}: يعني حياءً من الله -عز وجل- ليكون ظهره حائلاً بين عورته وبين السماء، يستحي من الله -عز وجل- فينزل ظهره حينما يقضي حاجته، أو حينما يريد أن يجامع فهو يستحي من الله -عز وجل- أن ينظر إلى عورته وهذا لجهلهم، فالله -عز وجل- لا يخفى عليه من أمرهم خافية، فرد الله -عز وجل- عليهم لفعلهم هذا: {أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ} يعني: حينما يلتحف في فراشه، الله -عز وجل- يعلم ماذا يحصل تحت هذا اللحاف، وما يتلجلج في نفسه {يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ} [سورة النحل(٢٣)]، لا يخفى عليه خافية، فهذا معنى، وذكر هذه القراءة: "**أَلا إِنَّهُمْ تَثْنُونِي صُدُورُهُم**"، تثنونِي يعني تثني صدورهم، وهي قراءة غير متواترة، وفيها قراءات أخرى غير متواترة، وبعض أهل العلم حملها على المنافقين، لكن هذه السورة مكية، ولم يكن في أهل مكة نفاق، وقال بعضهم: هذه في المنافقين إذا رأوا النبي -صلى الله عليه وسلم- استغشوا ثيابهم، فيغطون وجوههم؛ لئلا يراهم النبي -صلى الله عليه وسلم- فيدعوهم إلى الإيمان، كما قال نوح -عليه الصلاة والسلام- عن قومه: {وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ}[سورة نوح(٧)]، {وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ} إصراراً ألا يسمعوا، {وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ} يعني: غطوا وجوههم ورءوسهم بهذه الثياب، من أجل أن لا يروه -صلى الله عليه وسلم-، وبعضهم يقول: إنهم يفعلون ذلك لشدة بغضهم له، لا يحبون رؤيته؛ لأن البغض إذا كان قوياً مستحكماً فإن الإنسان لا يطيق معه النظر إلى من يبغضه، وبعض أهل العلم يقول: {أَلا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ} العرب تعبر بمثل هذا ويقصد به الإعراض، فإذا رأوه حادوا ومالوا عنه؛ لئلا يسمعوا كلامه، حمله بعض أهل العلم على هذا المعنى، معنى الانحراف، وبعضهم قال: {يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ} كناية عما يطوونه في صدورهم ويكنونه في قلوبهم، وتنطوي عليه ضمائرهم من الكفر والتكذيب، والضمير في قوله: {لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ} يحتمل أنه يرجع إلى النبي -صلى الله عليه وسلم-، يستغشون ثيابهم إذا رأوه من شدة البغض ليستخفوا منه، أو يستغشونها من أجل ألا يوجِّه خطاباً لهم؛ لئلا يأمرهم بالإيمان ويدعوهم، ويحتمل أن يكون الضمير يرجع إلى الله -عز وجل- على المعنى الذي ذكره ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- مثلاً، أنه {لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ} أي: من الله حينما يميل بظهره فيظن أنه يستر عورته عن الله -جل جلاله-، وكذلك قول من قال: إن ما تنطوي عليه ضمائرهم من الكفر يظنون أنه يخفى على الله -عز وجل-، ويحتمل أنه يقصد به استخفاء ذلك عن النبي -صلى الله عليه وسلم-؛ ولهذا حمله بعضهم على المنافقين، قال: الكفار

---

٦ - رواه البخاري برقم (٤٤٠٤)، كتاب التفسير، باب {أَلَا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ}.

٧ - رواه البخاري برقم (٤٤٠٦)، كتاب التفسير، باب {أَلَا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ}.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ما كانوا يكنّون هذا ويخفونه بل يجاهرون بالعداوة والكفر، ويعلنون ذلك صراحة، إنما كان الذي يخفيه هم أهم النفاق، فإذا حملنا الآية على المعنى الذي ورد فيه سبب النزول فيمكن أن يكتفى به، وإن كان ورد بعض الروايات لكنها لم تصح في مثل ما ذكر بأنهم كانوا إذا رأوا النبي -صلى الله عليه وسلم- غطوا، لكن لا يصح شيء في هذا، وابن جرير -رحمه الله- حمل ذلك على أن {يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ} إشارة إلى ما ينطوي فيها من الكفر والتكذيب، وإذا صحت هذه الرواية -الرواية التي أوردها في سبب النزول وهي صحيحة- فيكفي هذا -والله أعلم- في تفسير الآية.

{إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ}، أي: بما يجول في القلوب، وما يوجد فيها من الخوف والكفر أو الإيمان أو نحو هذا.

{وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ} [سورة هود(٦)]، **أخبر تعالى أنه متكفل بأرزاق المخلوقات من سائر دواب الأرض صغيرها وكبيرها، بحريّها وبريّها، وأنه يعلم مستقرها ومستودعها أي يعلم أين منتهى سيرها في الأرض وأين تأوي إليه من وكرها، وهو مستودعها، وقال علي بن أبي طلحة وغيره عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: {وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا} أي: حيث تأوي، {وَمُسْتَوْدَعَهَا}: حيث تموت، وأن جميع ذلك مكتوب في كتاب عند الله مبين عن جميع ذلك، كقوله**: {وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي الكِتَابِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ} [سورة الأنعام(٣٨)]، **وقوله**: {وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لاَ يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلاَ حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلاَ رَطْبٍ وَلاَ يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ} [سورة الأنعام(٥٩)].

قوله: {وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا}، الدابة: كل ما يدب على الأرض، هذا في أصل معناها في اللغة، {فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ}، بعضهم يقول: المستقر في الأصلاب، والمستودع في الأرحام، وبعضهم يقول: المستقر في الأرض أي على ظهرها، والمستودع في باطنها، إلى غير ذلك من الأقوال، فقوله: {يَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا} قيل: المستقر في الأصلاب، يعني هذه الدواب، {يَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا}، قال: أي في الأرحام أو ما يقوم مقامها كالبيضة مثلاً، وبعضهم يقول هنا كما قال الحافظ ابن كثير -رحمه الله-: إنه يعلم مستقرها ومستودعها أي: يعلم أين منتهى سير هذه الأشياء، فحينما تنطلق الطيور من أوكارها، والدواب تخرج من جحورها ونحو ذلك فهي حينما تنطلق الله -عز وجل- يعلم منتهى ذلك، يعلم مستقرها أين تصل، أين تذهب، أين تجيء، أين تكون، حينما تقع على الأشجار أو على الجبال أو غير ذلك، {يَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا} أين تكون، ومنتهى سيرها، {وَمُسْتَوْدَعَهَا} المكان الذي تأوي إليه، كل ذلك يعلمه، كل ما يصدر منها من حركة وانتقال فالله -عز وجل- قد أحاط به وعلمه لا يخفى عليه من ذلك خافية، فهذا معنىً جيد ذكره الحافظ ابن كثير -رحمه الله-، أين تأوي إليه من وكرها ومستودعها، وذكر "**عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: {مُسْتَقَرَّهَا} أي: حيث تأوي، والمستودع قال: حيث تموت**"، وهذا قال به ابن جرير -رحمه الله-، فالله -عز وجل- جعل الأرض مستودعاً لهذه المخلوقات، ثم يبعثهم الله -عز وجل- منها، ويدل عليه حديث أبي عزة -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((إذا قضى الله

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

لعبد أن يموت بأرض جعل له إليها حاجة، أو قال: بها حاجة))[٨]، فتقول: هذا ما استودعتني، {فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ}، -والله أعلم-.

{كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ} أي: يبين عما فيه من عددها وأرزاقها وحركاتها وسكناتها، وتفاصيل كل ما يتعلق بها، كما في الآية الأخرى {وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم}، قوله: {مَّا فَرَّطْنَا فِي الكِتَابِ مِن شَيْءٍ}، الراجح فيه: اللوح المحفوظ.

{وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَلَئِنْ قُلْتَ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُبِينٌ * وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ لَيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ أَلا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفاً عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ} [سورة هود(٧-٨)].

يخبر تعالى عن قدرته على كل شيء، وأنه خلق السماوات والأرض في ستة أيام، وأن عرشه كان على الماء قبل ذلك، كما روى الإمام أحمد عن عمران بن حصين -رضي الله تعالى عنهما- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((اقبلوا البشرى يا بني تميم))، قالوا: قد بشرتنا فأعطنا، قال: ((اقبلوا البشرى يا أهل اليمن))، قالوا: قد قبلنا فأخبرنا عن أول هذا الأمر كيف كان، قال: ((كان الله قبل كل شيء، وكان عرشه على الماء، وكتب في اللوح المحفوظ ذكر كل شيء))، قال: فأتاني آتٍ فقال: يا عمران انحلت ناقتكم من عقالها، قال: فخرجت في إثرها فلا أدري ما كان بعدي[٩].

وهذا الحديث مخرج في صحيحي البخاري[١٠] ومسلم[١١] بألفاظ كثيرة.

وفي صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو بن العاص -رضي الله تعالى عنهما- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((إن الله قدّر مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة، وكان

---

٨ - رواه الترمذي برقم (٢١٤٧)، وقال أبو عيسى: هذا حديث صحيح، كتاب القدر عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، باب ما جاء أن النفس تموت حيث ما كتب لها، وأحمد في المسند من حديث مطر بن عكامس -رضي الله عنه- (٣٠٨/٣٦) برقم (٢١٩٨٣)، وقال محققوه: صحيح لغيره، والحاكم في المستدرك (١٠٢/١)، برقم (١٢٦)، وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة برقم (١٢٢١).

٩ - رواه الإمام أحمد في المسند (١٠٨/٣٣)، برقم (١٩٨٧٦)، وقال محققوه: إسناده صحيح على شرط الشيخين.

١٠ - رواه البخاري برقم (٣٠١٩)، كتاب بدء الخلق، باب ما جاء في قول الله تعالى: {وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ} [سورة الروم(٢٧)]، بلفظ أن عمران بن حصين -رضي الله عنه- قال: "دخلت على النبي -صلى الله عليه وسلم- وعقلت ناقتي بالباب فأتاه ناس من بني تميم فقال ((اقبلوا البشرى يا بني تميم))، قالوا قد بشرتنا فأعطنا مرتين، ثم دخل عليه ناس من أهل اليمن فقال: ((اقبلوا البشرى يا أهل اليمن إذ لم يقبلها بنو تميم))، قالوا: قد قبلنا يا رسول الله، قالوا: جئناك نسألك عن هذا الأمر قال: ((كان الله ولم يكن شيء غيره، وكان عرشه على الماء، وكتب في الذكر كل شيء، وخلق السماوات والأرض))، فنادى منادٍ ذهبت ناقتك يا ابن الحصين فانطلقت فإذا هي يقطع دونها السراب، فوالله لوددت أني كنت تركتها".

١١ - رواه الإمام مسلم بمعناه برقم (٢٦٤٨)، كتاب القدر، باب كيفية الخلق الآدمي في بطن أمه وكتابة رزقه وأجله وعمله وشقاوته وسعادته.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

عرشه على الماء))[١٢]. وروى البخاري في تفسير هذه الآية عن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه-: أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((قال الله -عز وجل-: أَنفِق أُنفِق عليك))، وقال: ((يد الله ملأى لا يغيضها نفقة، سَحّاءَ الليل والنهار))، وقال: ((أفرأيتم ما أنفق منذ خلق السماوات والأرض، فإنه لم يغضِ ما في يمينه، وكان عرشه على الماء، وبيده الميزان يخفض ويرفع))[١٣].

اختلف أهل السنة والجماعة في أول المخلوقات فقال بعضهم: إن أول المخلوقات كان العرش، ومنهم من يقول: القلم لحديث: ((أول ما خلق الله القلم فقال له: اكتب))[١٤]، فيحتمل أن الله -تبارك وتعالى- أول ما خلق القلم قال له: اكتب، وليس المراد بأنه أول المخلوقات فهي أولية نسبية، ومن أهل العلم من يقول: إن العرش أول المخلوقات، ويستدلون بهذه الآية والأحاديث المتقدمة، والستة الأيام من أهل العلم من يقول: إنها بحساب الله –عز وجل-: {وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ} [سورة الحـج(٤٧)]، وبعضهم يقول: ليس الأيام التي عندنا، باعتبار أن هذه الأيام إنما وجدت بعد الشمس والقمر والسماوات الأرض، وحينما ذكر الله -عز وجل- هذا المعنى {خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ} لم يكن هناك لا شمس ولا قمر، ويمكن أن يكون ذلك بحسابها وتقديرها -ولا مانع من هذا- في ستة أيام، والخلق بدأ يوم الأحد ثم بعد ذلك إلى يوم الجمعة، في يوم الجمعة خُلق آدم، وفيه اكتمل الخلق، وهو أحد المعاني في سبب تسمية يوم الجمعة بهذا الاسم، لاجتماع الخلائق، يعني اكتمل خلقها في يوم الجمعة، أو لأنه اجتمع فيه خلق آدم، وقيل غير ذلك، فيمكن أن يكون ذلك بحسابها وإن لم يكن هناك شمس ولا قمر، ويوجد في الجنة يوم الجمعة، وورد في طوبى أن الراكب يمشي في ظلها مسيرة كذا، ولا يوجد شمس، فهذه المعاني التي جاءت عن الله -عز وجل- كلها حق، ولا يشترط أن يكون الظل من شمس، تقول: مشينا في ظل القمر، فالأنوار قد يوجد ما يحول بين الإنسان وبينها، فيوجد تحته ما يمكن أن يشبه الظل أو يكون ظلاً، فمثل هذه الأمور أخبر الله -عز وجل- عنها، وكلها حقائق ثابتة.

وقوله تعالى: {لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً} أي: خلق السماوات والأرض لنفع عباده الذين خلقهم ليعبدوه ولا يشركوا به شيئاً، ولم يخلق ذلك عبثاً، كقوله: {وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاء وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ} [سورة ص(٢٧)]، وقال تعالى: {أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ * فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ} [سورة المؤمنون(١١٥-١١٦)]، وقال تعالى: {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ} [سورة الذاريات(٥٦)] الآية.

وقوله: {لِيَبْلُوَكُمْ} أي: ليختبركم، {أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً} ولم يقل: أكثر عملاً، بل أحسن عملاً، ولا يكون العمل حسناً حتى يكون خالصاً لله -عز وجل- على شريعة رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، فمتى فقد العمل واحداً من هذين الشرطين حبط وبطل.

---

١٢ - رواه مسلم برقم (٢٦٥٣)، كتاب القدر، باب حجاج آدم وموسى -عليهما السلام.

١٣ - رواه البخاري برقم (٤٤٠٧)، كتاب التفسير، باب قوله {وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاء} [سورة هود(٧)].

١٤ - رواه أبو داود برقم (٤٧٠٠)، كتاب السنة، باب في القدر، والترمذي برقم (٣٣١٩)، وقال: هذا حديث حسن غريب، كتاب تفسير القرآن عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، باب ومن سورة ن، وأحمد في المسند (٣٧/٣٧٨) برقم (٢٢٧٠٥)، وقال محققوه: حديث صحيح، وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم (٢٠١٧).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الله -عز وجل- خلق الخلق من أجل إحسان العمل كما في قوله تعالى: {لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً}، ولم يقل: أكثر عملاً، فالعبرة ليست بالكثرة، وإنما العبرة بإتقان العمل، وهذا ينبغي أن يعتبر به الإنسان في كل أمر من أموره.

قوله: {لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً} أي: ليختبر صبركم وعملكم وبذْلكم، وكل ما يصدر منكم، فالله -عز وجل- جعل هذه الدنيا داراً للابتلاء يبتلي بها خلقه فيتمايزون ويتفاضلون فيها غاية التفاضل والتمايز، فيظهر منهم من ينافق إما ابتداءً وإما لعارض حصل من شدة نزلت به أو نحو ذلك فيحصل له نوع نفاق، ومنهم من يحصل له ردة وتكذيب، ومنهم من يحصل له شك، ومنهم من يثبت إيمانه، {وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا} [سورة الأحزاب(٢٢)]، كل هذا يحصل للناس في هذه الحياة.

وقوله: {وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِن بَعْدِ الْمَوْتِ} الآية، يقول تعالى: ولئن أخبرت يا محمد هؤلاء المشركين أن الله سيبعثهم بعد مماتهم كما بدأهم مع أنهم يعلمون أن الله تعالى هو الذي خلق السماوات والأرض، كما قال تعالى: {وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ} [سورة الزخرف(٨٧)]، {وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ} [سورة العنكبوت(٦١)]، وهم مع هذا ينكرون البعث والمعاد يوم القيامة، الذي هو بالنسبة إلى القدرة أهون من البداءة، كما قال تعالى: {وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ} [سورة الروم(٢٧)]، وقال تعالى: {مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ} [سورة لقمان(٢٨)]، وقولهم: {إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ} أي: يقولون كفراً وعناداً: ما نصدقك على وقوع البعث، وما يذكر ذلك إلا مَن سحرْتَه، فهو يتبعك على ما تقول.

ويحتمل أن يكون {إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ} أي: هذا الذي تقوله باطل كبطلان السحر، لكن هذا لا يظهر كل الظهور؛ لأنه جعله هنا بمنزلته، يعني مشبهاً به، وهنا الآية ظاهرها {إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ}؛ لهذا قال بعضهم: إن اسم الإشارة "هذا" يرجع إلى القرآن، {إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ} ، وهذا كثير في القرآن، أخبر عن مقالتهم في القرآن أنهم قالوا فيه: سحر، وقيل: إن اسم الإشارة يرجع إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- باعتبار قراءة أخرى متواترة، قراءة حمزة والكسائي {إِنْ هَذَا إِلاَّ سَاحِرٌ مُّبِينٌ}، فقراءة {إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ} يمكن أن يكون المراد بها القرآن ويدخل فيه ما جاء من الإخبار عن البعث، فهذا الذي جئت به سحر مبين، وعلى القراءة الأخرى يكون ذلك موجهاً إلى النبي -صلى الله عليه وسلم-.

وقوله: {وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ} الآية، يقول تعالى: ولئن أخرنا العذاب والمؤاخذة عن هؤلاء المشركين إلى أجل معدود وأمد محصور، وأوعدناهم إلى مدة مضروبة، ليقولن تكذيباً واستعجالاً {مَا يَحْبِسُهُ} أي: يؤخر هذا العذاب عنا، فإن سجاياهم قد ألفت التكذيب والشك، فلم يبقَ لهم محيص عنه ولا محيد.

الأَمّ: القصد، تقول: أَمّ نحو كذا بمعنى قصد، و{إِلَى أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ} يعني إلى مدة قصدهم بالعذاب مثلاً، {لَيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ} هذا إذا ربطناها بأصل المعنى اللغوي، {إِلَى أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ} إلى مدة زمنية محدودة معدودة قليلة {لَيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ}.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

والأمة تستعمل في القرآن والسنة في معانٍ متعددة، فيراد بها الأمد كقوله في هذه الآية: {إِلَى أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ}، وقوله في يوسف: {وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ} [سورة يوسف(٤٥)].

لفظ الأمة من قبيل الألفاظ المشتركة، والمشترك: هو اللفظ الواحد الذي له معانٍ متعددة، وهذا الذي يسمونه بالوجوه والنظائر، فالأمة تأتي لمعانٍ متعددة في القرآن، يقول: متعددة فيراد بها الأمد، يعني المدة الزمنية.

وتستعمل في الإمام المقتدى به كقوله: {إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ} [سورة النحل(١٢٠)].

باعتبار أنه يؤتم به، يقتدى به، أو باعتبار أنه جامع، فهو جامع للخصال والأوصاف الكاملة التي تفرقت في غيره واجتمعت فيه، ولا منافاة بينهما.

وتستعمل في الملة والدين، كقوله إخباراً عن المشركين إنهم قالوا: {إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ} [سورة الزخرف(٢٣)]، **وتستعمل في الجماعة كقوله: {وَلَمَّا وَرَدَ مَاء مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ}** [سورة القصص(٢٣)].

الجماعة إما مطلقاً كقوله: {وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً} يعني: جماعة من الناس، وإما الجماعة المتفقة أو المجتمعة على دين واحد، كما في قوله تعالى: {كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً} [سورة البقرة(٢١٣)]، يعني: مجتمعة على دين واحد، {كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ} [سورة آل عمران(١١٠)] الأمة المجتمعة على الإسلام، على توحيد الله -عز وجل- واتباع رسوله -صلى الله عليه وسلم-، وهكذا، فهي الجماعة: تارة مطلقاً {وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ} جماعة من الناس يسقون، أو الجماعة المجتمعة على دين.

وقوله: {وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُواْ اللّهَ وَاجْتَنِبُواْ الطَّاغُوتَ} [سورة النحل(٣٦)]، **وقال تعالى: {وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَاء رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ}** [سورة يونس(٤٧)]، **والمراد من الأمة هاهنا الذين يبعث فيهم الرسول مؤمنهم وكافرهم، كما في صحيح مسلم: ((والذي نفسي بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني ثم لا يؤمن بي إلا دخل النار))**[١٥]، **وأما أمة الأتباع فهم المصدقون للرسل، كما قال تعالى: {كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ}، وفي الصحيح: ((فأقول: أمتي أمتي))**[١٦].

يعني أن أمة محمد -صلى الله عليه وسلم- تنقسم إلى قسمين، أمة إجابة، وهم الذين اتبعوه وأسلموا وآمنوا، وأمة دعوة، وهم كل من وجهت إليهم الدعوة، فاليهود والنصارى الموجودون الآن وأهل الأوثان وغيرهم هؤلاء كلهم أمة محمد -صلى الله عليه وسلم-، يعني أمة الدعوة، الذين خوطبوا بالدعوة، فهم كلهم من أمته.

وتستعمل الأمة في الفرقة والطائفة كقوله تعالى: {وَمِن قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ} [سورة الأعراف(١٥٩)]، **وكقوله: {مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ} الآية.**

---

١٥ - رواه مسلم برقم (١٥٣)، عن أبي هريرة -رضي الله عنه- بلفظ: ((والذي نفس محمد بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني ثم يموت، ولم يؤمن بالذي أرسلت به إلا كان من أصحاب النار)) كتاب الإيمان، باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد -صلى الله عليه وسلم- إلى جميع الناس ونسخ الملل بملة.

١٦ - جزء من حديث رواه مسلم برقم (١٩٣)، كتاب الإيمان، باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الطائفة والجماعة مما يرجع إلى معاني الأمة، وهي تأتي بأربعة معانٍ على المشهور: بمعنى المدة الزمنية، والرجل المقتدى به، الجامع لخصال الخير، والجماعة من الناس بفرعيها مطلقاً، أو المجتمعة على دين وملة واحدة -والله أعلم-.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة هود (٢)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله- في تفسير قوله تعالى: {وَلَئِنْ أَذَقْنَا الإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ * وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ * إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُوْلَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ} [(٩ - ١١) سورة هود].

يخبر تعالى عن الإنسان وما فيه من الصفات الذميمة -إلا من رحم الله من عباده المؤمنين- أنه إذا أصابته شدة بعد نعمة حصل له يأس وقنوط من الخير بالنسبة إلى المستقبل، وكفر وجحود لماضي الحال كأنه لم يرَ خيراً ولم يرجُ بعد ذلك فرجاً، وهكذا إن أصابته نعمة بعد نقمة {لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي} أي: يقول: ما ينالني بعد هذا ضيم ولا سوء، {إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ} أي: فرح بما في يده بطر، فخور على غيره.

قال الله تعالى: {إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا} أي: على الشدائد والمكاره، {وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ} أي: في الرخاء والعافية، {أُوْلَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ} أي: بما يصيبهم من الضراء، {وَأَجْرٌ كَبِيرٌ} بما أسلفوه في زمن الرخاء، كما جاء في الحديث: ((والذي نفسي بيده لا يصيب المؤمن هم ولا غم ولا نصب ولا وصب ولا حزن حتى الشوكة يشاكها إلا كفر الله عنه بها من خطاياه))[1]، وفي الصحيح: ((والذي نفسي بيده لا يقضي الله للمؤمن قضاءً إلا كان خيراً له، إن أصابته سراء فشكر كان خيراً له، وإن أصابته ضراء فصبر كان خيراً له، وليس ذلك لأحد غير المؤمن))[2]؛ ولهذا قال الله تعالى: {وَالْعَصْرِ * إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ} [(١-٣) سورة العصر]، وقال تعالى: {إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا } [(١٩) سورة المعارج]، الآيات.

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: {وَلَئِنْ أَذَقْنَا الإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ} [(٩) سورة هود]، اللام هي الموطئة للقسم، والإذاقة تدل على أن أدنى ما يحصل للإنسان من ذلك يؤثر عليه، والإنسان جنس يشمل، أو يصدق على الإنسان من حيث هو ولا يختص ذلك بالكافر، ومن أهل العلم من قال: المقصود به الإنسان الكافر؛ لأن الله -عز وجل- قال: {إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ}، ثم إن الله استثنى الذين صبروا وعملوا الصالحات، فقال: {إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُوْلَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ} [(١١) سورة هود].

---

[1] - رواه البخاري، كتاب المرضى، باب ما جاء في كفارة المرضى (٥ / ٢١٣٧)، برقم (٥٣١٨)، ولفظه: ((ما يصيب المسلم من نصب ولا وصب ولا هم ولا حزن ولا أذى ولا غم حتى الشوكة يشاكها إلا كفر الله بها من خطاياه)).

[2] - رواه مسلم، كتاب الزهد والرقائق، باب المؤمن أمره كله خير (٤ / ٢٢٩٥)، برقم (٢٩٩٩)، ولفظه: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((عجباً لأمر المؤمن إنّ أمره كله خير وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له)) .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

قوله -تبارك وتعالى-: {إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ} [(١٠) سورة هود] المقصود بالفرَح في هذه الآية الفرَح المذموم كما قال المشفقون الناصحون لقارون: {لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ} [(٧٦) سورة القصص]، وكما في قوله -تبارك وتعالى-: {وَلاَ تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا} [(٣٧) سورة الإسراء] وهذا الفرَح هو الذي يحمل صاحبه على الأشر والبطر والتعالي في الأرض.

قوله: {إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ أُوْلَئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ} [(١١) سورة هود]، "أي: **على الشدائد والمكاره**"، ولا يختص الصبر بالصبر على الشدائد والمكاره فقط، بل الصبر على طاعة الله -عز وجل- داخل في معنى هذه الآية؛ لأن الإنسان إذا أصابه الغنى فإن ذلك يحمله غالباً على ترك الطاعة وفعل المعصية، ولهذا تكلم العلماء في الغنيّ الشاكر هل أفضل أو الفقير الصابر؟ والواقع أن هذه المسألة بهذا العرض فيها شيء من اللبس؛ لأن الغنيّ يحتاج إلى الصبر ولربما يحتاج إلى أكثر من صبر الفقير.

قوله: {فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ * أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنْ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ * فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَنْ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ}، [(١٢-١٤)سورة هود].

يقول تعالى مسلياً لرسوله -صلى الله عليه وسلم- عما كان يتعنت به المشركون فيما كانوا يقولونه عن الرسول -صلى الله عليه وسلم- كما أخبر تعالى عنهم في قوله: {وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا *أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا} [(٧- ٨) سورة الفرقان]، **فأمر الله تعالى رسوله -صلوات الله تعالى وسلامه عليه-، وأرشده إلى أن لا يضيق بذلك منهم صدرُه، ولا يصدنّه ذلك ولا يثنينَّه عن دعائهم إلى الله -عز وجل- آناء الليل وأطراف النهار، كما قال تعالى:** {وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ} [(٩٧) سورة الحجر] **الآية، وقال هاهنا:** {فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَضَآئِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَن يَقُولُواْ} [(١٢) سورة هود] **أي: لقولهم ذلك، فإنما أنت نذير، ولك أسوة بإخوانك من الرسل قبلك فإنهم كُذبوا وأوذوا فصبروا حتى أتاهم نصر الله -عز وجل-.**

قوله: {فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَن يَقُولُواْ لَوْلاَ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَاء مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنتَ نَذِيرٌ وَاللّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ} [(١٢) سورة هود] ضائق اسم فاعل وهو يدل على أن هذا الضيق عارض وحادث، وقد فرق بعض أهل العلم بين التعبير باسم الفاعل وبين التعبير بالصفة المشبَّهة مثل ضيّق، فالصفة المشبَّهة تدل على اللزوم، واسم الفاعل يدل على العروض والحدوث، فهذا الضيق الذي يحصل للنبي -صلى الله عليه وسلم- هو ضيق عارض بسبب التكذيب، تكذيب قومه، فيضيق صدره بسبب ذلك، وهذا يختلف عن قوله -تبارك وتعالى-: {فَمَن يُرِدِ اللّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلاَمِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاء كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ} [(١٢٥) سورة الأنعام]، فلكون الضيق ملازماً للإنسان البعيد عن الله -تبارك وتعالى- ولا يفارقه عبر عنه بـ{ضَيِّقًا}، وأما

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الضيق العارض فعبر عنه بـــ{ضَائِقٌ}، وهذا من سعة اللغة العربية ودقتها، وأفانينها، فتجد اللفظة الواحدة يعبر بها مع اختلاف يسير في الحروف وتدل على معانٍ دقيقة في كل استعمال.

وتأمل قول الله –تبارك وتعالى-: {يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ} [(٢) سورة الحـــج] فهناك فرق بين مرضعة ومرضع، فالمرضعة هي التي تقوم عملياً بالإرضاع وتباشر إرضاع طفلها، والمرضع هي من كانت صفتها الإرضاع، فلم يقل الله -عز وجل-: تذهل كل مرضع؛ لأن المرأة قد تذهل عن ولدها لأمر ما كأن تكون بعيدة عنه، ولا تذهل عن ولدها وهي تقوم بإرضاعه إلا لأمر عظيم؛ لأن أعظم حالات مشاعر الأمومة عند المرأة -وتفيض من جميع جسدها وقلبها يمتلئ بذلك- في حال الإرضاع.

ومعنى قوله: {فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ}، أي: هل أنت تارك بعض ما يوحى إليك وضائق به صدرك مخافة أن يقولوا كذا وكذا؟.

قوله –تبارك وتعالى-: {أَن يَقُولُواْ لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ} أي: كراهة أن يقولوا، أو مخافة أن يقولوا، و{لَوْلا} للتحضيض بمعنى هلا.

ثم بيّن تعالى إعجاز القرآن، وأنه لا يستطيع أحد أن يأتي بمثله، ولا بعشر سور مثله، ولا بسورة من مثله؛ لأن كلام الرب تعالى لا يشبه كلام المخلوقين، كما أن صفاته لا تشبه صفات المحدثات، وذاته لا يشبهها شيء، تعالى وتقدّس وتنزه لا إله إلا هو ولا رب سواه.

ثم قال تعالى: {فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ} [(١٤) سورة هود] فإن لم يأتوا بمعارضة ما دعوتموهم إليه فاعلموا أنهم عاجزون عن ذلك، وأن هذا الكلام منزل من عند الله، متضمن علمه وأمره ونهيه، {وَأَن لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ} [(١٤) سورة هود].

قوله –تبارك وتعالى- {أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ}، "أم" بمعنى بل والهمزة، والمعنى بل أيقولون افتراه؟ هذا هو التحدي الأوسط فيما يتصل بالقرآن، فقد تحداهم الله –تبارك وتعالى- أن يأتوا بكتاب مثل القرآن فعجزوا، وتحداهم أن يأتوا بعشر سور فعجزوا، وتحداهم أن يأتوا بسورة من مثله فعجزوا.

قوله: {فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ} [(١٤) سورة هود] الضمير في قوله: {يَسْتَجِيبُواْ} يرجع إلى الكفار، وقوله {لَكُمْ} يحتمل أن يكون المراد بذلك النبي -صلى الله عليه وسلم- وجاء بصيغة الجمع على سبيل التفخيم والتعظيم له -صلى الله عليه وسلم- لأن الكلام كان مع النبي -صلى الله عليه وسلم- في قوله: {فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ} [(١٢) سورة هود] ، والعرب قد تخاطب الواحد خطاب الجماعة، ويحتمل أن يكون المقصود هو النبي –صلى الله عليه وسلم- ومن معه من أهل الإيمان؛ لأنهم تبع للنبي -صلى الله عليه وسلم-.

ويحتمل أن يكون الخطاب في قوله: {يَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ} للكفار والضمير في قوله: {يَسْتَجِيبُواْ} يرجع إلى الاسم الموصول في قوله: {وَادْعُواْ مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللّهِ} [(١٣) سورة هود]، أي: هؤلاء الذين تدعونهم ليأتوكم بمثل هذا القرآن ويعينوكم عليه أيها الكفار، إن لم يستجيبوا لكم {فَاعْلَمُواْ أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللّهِ} [(١٤) سورة هود]، أي: أن نزوله متلبس بعلم الله، وهذا الذي قاله ابن جرير، ولعل الأقرب -والله أعلم- أن الخطاب للنبي -صلى الله عليه وسلم- ولأهل الإيمان.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

قوله: {مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لا يُبْخَسُونَ* أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ إِلاَّ النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} [(١٥- ١٦) سورة هود].

قال العوفي عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- في هذه الآية: إن أهل الرياء يعطون بحسناتهم في الدنيا وذلك أنهم لا يظلمون نقيراً، يقول: من عمل صالحاً التماس الدنيا صوماً أو صلاة أو تهجداً بالليل لا يعمله إلا التماس الدنيا يقول الله تعالى: أوفّيه الذي التمس في الدنيا من المثابة، وحبط عمله الذي كان يعمله للتماس الدنيا وهو في الآخرة من الخاسرين.

وهكذا روي عن مجاهد والضحاك وغير واحد.

وقال أنس بن مالك والحسن: نزلت في اليهود والنصارى.

وقال مجاهد وغيره: نزلت في أهل الرياء.

وقال قتادة: من كانت الدنيا همه ونيته وطلبته جازاه الله بحسناته في الدنيا، ثم يفضي إلى الآخرة وليس له حسنة يعطى بها جزاءً، وأما المؤمن فيجازى بحسناته في الدنيا، ويثاب عليها في الآخرة، وقال تعالى: {مَّن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاء لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا * وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا * كُلاًّ نُّمِدُّ هَؤُلاء وَهَؤُلاء مِنْ عَطَاء رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاء رَبِّكَ مَحْظُورًا * انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلَلآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلاً} [(١٨-٢١) سورة الإسراء]، **وقال تعالى: {مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ}** [(٢٠) سورة الشورى].

قوله –تبارك وتعالى-: **{مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لا يُبْخَسُونَ* أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ إِلاَّ النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}** [(١٥- ١٦) سورة هود].

اختلف أهل العلم في معنى هذه الآية، فحملها بعضهم على الكفار؛ لأن الإنسان لا يخلوا من إرادة للحياة الدنيا وزينتها وقد قال عن أهل بدر وهم خيار أهل الأرض: **{تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللّهُ يُرِيدُ الآخِرَةَ}** [(٦٧) سورة الأنفال]

ومن أهل العلم من حملها على أهل الرياء؛ ولهذا لما حدّث معاوية بن أبي سفيان -رضي الله عنه- بحديث أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- في الثلاثة الذين هم أول من تسعر بهم النار يوم القيامة فبكى معاوية -رضي الله عنه- بكاءً شديداً، حتى ظنوا أنه هلك من شدة البكاء، ثم أفاق ومسح عن وجهه وقال صدق الله ورسوله **{مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لاَ يُبْخَسُونَ}** [(١٥) سورة هود][٣].

فحملها معاوية -رضي الله عنه- على أهل الرياء، ولا يعنى هذا أن أعمال أهل الرياء تحبط جميعاً، بل يعذبون على قدر معصيتهم، أو تكون لهم حسنات ماحية، ولا يخلدون في النار إلا إذا وقع الرياء في أصل الإيمان.

---

[3] - رواه الترمذي، كتاب الزهد، باب الرياء والسمعة (٤ / ٥٩١)، برقم (٢٣٨٢)، وصححه الألباني.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ومن أهل العلم من قال: معنى هذه الآية من كانت الدنيا غايته وطلبته ومنتهى مناه، فإنه لا يعمل إلا من أجلها، فمن أجلها يقوم، ومن أجلها يقعد، ومن أجلها يعطي ومن أجلها يمنع، فهذا ليس له في الآخرة إلا النار، ولهذا جاء في كتاب التوحيد للشيخ محمد بن عبد الوهاب -رحمه الله-: باب من الشرك إرادة الإنسان بعمله الدنيا، وذكر الآية.

وقوله –تبارك وتعالى- **{مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لاَ يُبْخَسُونَ}** [(١٥) سورة هود]، يعني: من كان يريد الحياة الدنيا تُوفّ كاملة إليه ولا يبخس منها شيئاً، وهذه الآية كقوله: **{مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ}** [(٢٠) سورة الشورى]، ومثل قوله: **{وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا}** [(١٤٥) سورة آل عمران]، وهذه الآيات مطلقة ورد تقييدها في سورة الإسراء: **{مَّن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاء لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا}** [(١٨) سورة الإسراء]، ولذلك أكثر الخلق ليس لهم همٌ إلا الدنيا وهم فقراء.

(مسألة)

من الكتب التي تعتني بالجوانب البلاغية كتاب التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور، وهو من أحسن الكتب في هذا الباب، ومن أراد الاطلاع على بعض الجوانب البلاغية في القرآن فليرجع إلى أشرطة للدكتور السامرائي ففيها نماذج كثيرة من البلاغة القرآنية.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة هود (٣)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المصنف -رحمه الله- في تفسير قوله تعالى: {أَفَمَن كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً أُوْلَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَن يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ فَلاَ تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يُؤْمِنُونَ} [(١٧) سورة هود].

يخبر تعالى عن حال المؤمنين الذين هم على فطرة الله تعالى التي فطر عليها عباده من الاعتراف له بأنه لا إله إلا هو، كما قال تعالى: {فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا} [(٣٠) سورة الروم] **الآية.**

وفي الصحيحين عن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه، كما تولد البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء؟))[1]**، الحديث.**

وفي صحيح مسلم عن عياض بن حمار -رضي الله تعالى عنه- عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((يقول الله تعالى: إني خلقت عبادي حنفاء، فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم وحرمت عليهم ما أحللت لهم، وأمرتْهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطاناً، فالمؤمن باق على هذه الفطرة))[2]**.**

قوله: {وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ} [(١٧) سورة هود] **أي: وجاءه شاهد من الله، وهو ما أوحاه إلى الأنبياء من الشرائع المطهرة المكملة المعظمة، المختتمة بشريعة محمد -صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين-، وذلك أن المؤمن عنده من الفطرة ما يشهد للشريعة من حيث الجملة، والتفاصيل تؤخذ من الشريعة، والفطرة تصدقها وتؤمن بها، ولهذا قال تعالى: {أَفَمَن كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ}** [(١٧) سورة هود] **وهو القرآن بلغه جبريل -عليه السلام- إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- وبلغه النبي -صلى الله عليه وسلم- إلى أمته.**

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: {أَفَمَن كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ} [(١٧) سورة هود]، الذي هو على بينة من ربه هو من كان على الفطرة، والشاهد هو الوحي وهو القرآن والمراد بقوله: {عَلَى بَيِّنَةٍ} أي: أن الله أودع في هذا الإنسان الفطرة، فاجتمع نور الفطرة مع نور القرآن، فأبصر الحق، ولم يلتبس عليه.

---

[1] - رواه البخاري، كتاب الجنائز، باب ما قيل في أولاد المشركين (١ / ٤٦٥)، برقم (١٣١٩)، ورواه مسلم، كتاب القدر، باب معنى كل مولود يولد على الفطرة (٤ / ٢٠٤٧)، برقم (٢٦٥٨).

[2] - رواه مسلم، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار (٤ / ٢١٩٧)، برقم (٢٨٦٥).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وقوله: {وَيَتْلُوهُ} أي: يعقبه نور الوحي.

وقال بعض أهل العلم في قوله -تبارك وتعالى-: {أَفَمَن كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ} هو طالب الآخرة، وبعضهم فسر هذه الآية بمعنى أخص، فقال: {أَفَمَن كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ} هو النبي -صلى الله عليه وسلم- {وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ} هو جبريل -صلى الله عليه وسلم-.

وقال بعض أهل العلم: الضمير في {يَتْلُوهُ} راجع إلى البينة، والضمير في {مِّنْهُ} راجع إلى القرآن، وقال بعضهم: {وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ} أي: شاهد من الله، وقال بعضهم: {وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ} أي: من الإنجيل، وذلك أن عيسى -عليه السلام- بشر بالنبي -صلى الله عليه وسلم- وقد قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((أنا دعوة إبراهيم -عليه الصلاة والسلام- وبشارة عيسى))[٣]، والآية تحتمل جميع هذه الأقوال.

ثم قال تعالى: {وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى} [(١٧) سورة هود]، أي: ومن قبل القرآن كتاب موسى -عليه السلام- وهو التوراة.

وبعض أهل العلم قال في معنى قوله: {وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى}: يعني: ومن قبله شاهد آخر وهو كتاب موسى يشهد بصحة نبوته -عليه الصلاة والسلام-.

وفي قول الله -تبارك وتعالى-: {أَفَمَن كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ} [(١٧) سورة هود]، مقدر وهو: خيرٌ أم ذلك الذي على ضلالة وكفر وإعراض وتخرص وجهل، وقول على الله بلا علم؟.

قوله: {إِمَامًا وَرَحْمَةً} [(١٧) سورة هود] أي: أنزله الله تعالى إلى تلك الأمة إماماً لهم، وقدوة يقتدون بها، ورحمة من الله بهم، فمن آمن بها حق الإيمان قاده ذلك إلى الإيمان بالقرآن؛ ولهذا قال تعالى: {أُوْلَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ} [(١٧) سورة هود]، ثم قال متوعداً لمن كذب بالقرآن أو بشيء منه: {وَمَن يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ} [(١٧) سورة هود]، أي: ومن كفر بالقرآن من سائر أهل الأرض مشركهم وكافرهم، وأهل الكتاب وغيرهم من سائر طوائف بني آدم على اختلاف ألوانهم وأشكالهم وأجناسهم ممن بلغه القرآن، كما قال تعالى: {لأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ} [(١٩) سورة الأنعام]، وقال تعالى: {قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا} [(١٥٨) سورة الأعراف]، وقال تعالى: {وَمَن يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ} [(١٧) سورة هود].

وفي صحيح مسلم عن أبي موسى الأشعري -رضي الله تعالى عنه- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((والذي نفسي بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني ثم لا يؤمن بي إلا دخل النار))[٤].

وقال أيوب السختياني عن سعيد بن جبير قال: كنت لا أسمع بحديث عن النبي -صلى الله عليه وسلم- على وجهه إلا وجدت مصداقه -أو قال: تصديقه- في القرآن، فبلغني أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ((لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني ثم لا يؤمن بي إلا دخل النار))، فجعلت أقول:

---

[3] - رواه الحاكم في المستدرك (٢ / ٤٥٣)، برقم (٣٥٦٦).

[4] - رواه مسلم، كتاب الإيمان، باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد -صلى الله عليه وسلم- إلى جميع الناس (١ / ١٣٤)، برقم (١٥٣).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أين مصداقه في كتاب الله؟ قال: وقلما سمعت عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- إلا وجدت له تصديقاً في القرآن، حتى وجدت هذه الآية: {وَمَن يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ}، قال: من الملل كلها[٥].

وقوله: {فَلاَ تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ} [(١٧) سورة هود] الآية، أي القرآن حق من الله لا مرية ولا شك فيه، كما قال تعالى: {الم * تَنزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ} [(١-٢) سورة السجدة]، وقال تعالى: {الم * ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ} [(١- ٢) سورة البقرة]، وقوله: {وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يُؤْمِنُونَ} [(١٧) سورة هود]، كقوله تعالى: {وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ} [(١٠٣) سورة يوسف]، وقال تعالى: {وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللّهِ} [(١١٦) سورة الأنعام]، وقال تعالى: {وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ} [(٢٠) سورة سبأ].

قوله: {فَلاَ تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ} [(١٧) سورة هود] سبق الكلام على هذه المسألة، وقال بعض أهل العلم: هذا الخطاب لأمته -صلى الله عليه وسلم-.

{وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً أُوْلَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الأَشْهَادُ هَؤُلاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ * الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجاً وَهُمْ بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ * أُوْلَئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ * أُوْلَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ * لا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الآخِرَةِ هُمُ الأَخْسَرُونَ} [(١٨-٢٢) سورة هود].

يبيّن تعالى حال المفترين عليه وفضيحتهم في الدار الآخرة على رءوس الخلائق من الملائكة والرسل والأنبياء وسائر البشر والجان، كما روى الإمام أحمد عن صفوان بن محرِّز قال: كنت آخذاً بيد ابن عمر إذ عرض له رجل قال: كيف سمعت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول في النجوى يوم القيامة؟ قال: سمعته يقول: ((إن الله -عز وجل- يدني المؤمن فيضع عليه كنفه، ويستره من الناس، ويقرره بذنوبه ويقول له: أتعرف ذنب كذا؟ أتعرف ذنب كذا؟ أتعرف ذنب كذا؟ حتى إذا قرره بذنوبه ورأى في نفسه أنه قد هلك، قال: فإني قد سترتها عليك في الدنيا وإني أغفرها لك اليوم، ثم يعطى كتاب حسناته، وأما الكفار والمنافقون فيقول الأشهاد: {هَؤُلاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ}))[٦]. أخرجه البخاري ومسلم في الصحيحين.

قوله -عز وجل-: **{وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً}** يعني: لا أحد أظلم ممن افترى على الله كذباً، وقوله: **{أُوْلَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الأَشْهَادُ هَؤُلاءِ الَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَى رَبِّهِمْ}**، الأشهاد هم جميع الخلائق من الملائكة والرسل والأنبياء وسائر البشر، والمعنى أن من كذب على الله سيفتضح في يوم القيامة، وتقول جميع الخلائق: **{هَؤُلاءِ الَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَى رَبِّهِمْ}**.

---

[5] - رواه الحاكم في المستدرك، كتاب التفسير، تفسير سورة هود (٢ / ٣٧٢)، برقم (٣٣٠٩).

[6] - رواه البخاري، كتاب المظالم، باب قول الله تعالى: { أَلاَ لَعْنَةُ اللّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ} [(١٨) سورة هود] (٢ / ٨٦٢)، برقم (٢٣٠٩)، ومسلم، كتاب التوبة، باب قبول توبة القاتل وإن كثر قتله (٨ / ١٠٥)، برقم (٧١٩١).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ومن أهل العلم من فسر الأشهاد بالرسل -عليهم الصلاة والسلام-، ومنهم من فسرهم بالملائكة، ومنهم من قال: الحفظة من الملائكة، يحفظون أعمال الناس ويشهدون عليهم بذلك، ومنهم من قال: الأشهاد يشمل الملائكة والرسل، وقال بعضهم: هذا يصدق على الملائكة والرسل والعلماء، فهؤلاء يشهدون على الناس، والله -عز وجل- يقول: {وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاء} [(٦٩) سورة الزمر]، والله -عز وجل- يقول لنبيه -صلى الله عليه وسلم-: {فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلاء شَهِيدًا} [(٤١) سورة النساء]، فلا شك أن الرسل -عليهم الصلاة والسلام- يشهدون على أقوامهم، والملائكة الذين يتعاقبون في الناس، والذين يكتبون الأعمال من جملة الشهداء، والله -عز وجل- يقول: {مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ} [(١٨) سورة ق]، وقال: {وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ * أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ * مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ} [(٢٣-٢٥) سورة ق].

قوله: {أَلا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ} [(١٨) سورة هود] يحتمل أن يكون هذا القول من الأشهاد، ويكون الكلام من الموصول لفظاً ومعنى، ويحتمل أن يكون هذا القول من الله -تبارك وتعالى- والأقرب -والله أعلم- أنه من كلام الأشهاد؛ لأن الأصل في الكلام أن يكون متصلاً لفظاً ومعنى.

وقوله: {الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا} [(١٩) سورة هود] أي: يردون الناس عن اتباع الحق وسلوك طريق الهدى الموصلة إلى الله -عز وجل- ويجتنبونهم الجنة، {وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا} أي: ويريدون أن يكون طريقهم عوجاً غير معتدلة، {وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ} [(١٩) سورة هود]، أي: جاحدون بها مكذبون بوقوعها وكونها{أُولَئِكَ لَمْ يَكُونُواْ مُعْجِزِينَ فِي الأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ اللّهِ مِنْ أَوْلِيَاء} [(٢٠) سورة هود]، أي: بل كانوا تحت قهره وغلبته وفي قبضته وسلطانه، وهو قادر على الانتقام منهم في الدار الدنيا قبل الآخرة، {إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأَبْصَارُ} [(٤٢) سورة إبراهيم]، وفي الصحيحين: ((إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته))[٧].

قوله -تبارك وتعالى-: {وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا}، أي: يريدون أن يكون طريقهم عوجاً غير معتدلة، والضمير في {يَبْغُونَهَا} يرجع إلى السبيل، وهذه الآية بعموم لفظها تصدق على كل من صد عن سبيل الله -عز وجل- ومن ضلل الناس بكتاباته، وضاق ذرعاً بشرائع الإسلام فلبّس على الناس، وشككهم في دينهم، وضللهم وأغراهم بالفساد والشر والمنكر، ودعا المرأة إلى التمرد والاختلاط ومزاحمة الرجال، ونزع الحجاب، واستهزأ بالآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر، وجمعيات التحفيظ، والحفظة لكتاب الله، والدعاة إلى الله -تبارك وتعالى-.

ولهذا قال تعالى: {يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ} [(٢٠) سورة هود] الآية، أي: يضاعف عليهم العذاب، وذلك أن الله تعالى جعل لهم سمعاً وأبصاراً وأفئدة، فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم، بل كانوا صماً عن سماع الحق، عمياً عن اتباعه، كما أخبر تعالى عنهم حين دخولهم النار، كقوله: {وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ} [(١٠) سورة الملك]، وقال تعالى: {الَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ اللّهِ

---

[7] - رواه البخاري، كتاب التفسير، سورة هود (٤ / ١٧٢٦)، برقم (٤٤٠٩)، ومسلم، كتاب البر والصلة، باب تحريم الظلم (٤ / ١٩٩٧)، برقم (٢٥٨٣).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يُفْسِدُونَ} [(٨٨) سورة النحل] الآية، **ولهذا يعذبون على كل أمر تركوه، وعلى كل نهي ارتكبوه.**

قول الحافظ ابن كثير -رحمه الله-: "**ولهذا يعذبون على كل أمر تركوه، وعلى كل نهي ارتكبوه**"، هذا باعتبار قول الله -عز وجل-: {مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ * قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ * وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ * وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ *وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ} [(٤٢-٤٦) سورة المدثر]، ومسألة تكليف الكفار بفروع الشريعة مسألة خلافية بين علماء الأصول.

ولا شك أن أهل النار يتفاوتون في العذاب، وقد قال الله –عز وجل-: {وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ} [(٨) سورة الزلزلة].

قوله -تبارك وتعالى-: {يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ مَا كَانُواْ يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُواْ يُبْصِرُونَ} [(٢٠) سورة هود] أي: لا يستطيعون السمع؛ لأنهم عُمي عن رؤية الحق، وصم عن سماعه، فلهم سمع لم ينتفعوا به، ولهم بصر لم ينتفعوا به.

ويحتمل أن يكون معنى قوله: {مَا كَانُواْ يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُواْ يُبْصِرُونَ} أنهم من شدة عداوتهم للنبي –صلى الله عليه وسلم- لم يكونوا يستطيعون السمع، فلا يتحملون أن يسمعوا كلامه، ولا يطيقون النظر إليه.

قال العلامة الشنقيطي -رحمه الله تعالى-: قوله تعالى: {مَا كَانُواْ يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُواْ يُبْصِرُونَ} [(٢٠) سورة هود] في هذه الآية الكريمة للعلماء أوجه، بعضها يشهد له القرآن:

الأول: وهو اختيار ابن جرير الطبري في تفسيره، ونقله عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- وقتادة **أن** معنى {مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ}، أنهم لا يستطيعون أن يسمعوا الحق سماع منتفع، ولا أن يبصروه إبصار مهتدٍ، لاشتغالهم بالكفر الذي كانوا عليه مقيمين عن استعمال جوارحهم في طاعة الله تعالى، وقد كانت لهم أسماع وأبصار. ويدل لهذا قوله تعالى: {وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُم مِّن شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ} [(٢٦) سورة الأحقاف] الآية.

الثاني: وهو أظهرها عندي أن عدم الاستطاعة المذكور في الآية إنما هو للختم الذي ختم الله على قلوبهم وأسماعهم والغشاوة التي جعل على أبصارهم. ويشهد لهذا القول قوله تعالى: {وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا} [(٤٦) سورة الإسراء]، ونحو ذلك من الآيات.

وذلك الختم والأكنّة على القلوب جزاء من الله تعالى لهم على مبادرتهم إلى الكفر وتكذيب الرسل باختيارهم ومشيئتهم كما دلت عليه آيات كثيرة كقوله: {بَلْ طَبَعَ اللّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ} [(١٥٥) سورة النساء]، وقوله: {فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ} [(٥) سورة الصف]، وقوله: {فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللّهُ مَرَضاً} [(١٠) سورة البقرة] الآية، وقوله: {وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كَافِرُونَ} [(١٢٥) سورة التوبة]، وقوله: {وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ} [(١١٠) سورة الأنعام] الآية، إلى غير ذلك من الآيات.

الثالث: أن المعنى ما كانوا يستطيعون السمع أي: لشدة كراهيتهم لكلام الرسل، على عادة العرب في قولهم: لا أستطيع أن أسمع كذا، إذا كان شديد الكراهية والبغض له، ويشهد لهذا القول قوله تعالى: {وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنكَرَ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا} [(٧٢) سورة الحـج]، وقوله تعالى: {وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ} [(٢٦) سورة فصلت] الآية، وقوله: {وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ} [(٧) سورة نوح] الآية.

الرابع: أن "مَا" مصدرية ظرفية، أي يضاعف لهم العذاب مدة كونهم يستطيعون أن يسمعوا ويبصروا، أي: يضاعف لهم العذاب دائماً.

الخامس: أن "ما" مصدرية في محل نصب بنزع الخافض، أي يضاعف لهم العذاب بسبب كونهم يستطيعون السمع والإبصار في دار الدنيا، وتركوا الحق مع أنهم يستطيعون إدراكه بأسماعهم وأبصارهم.

السادس: أن قوله: {مَا كَانُواْ يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُواْ يُبْصِرُونَ} [(٢٠) سورة هود] من صفة الأصنام التي اتخذوها أولياء من دون الله، فيكون متصلاً بقوله: {وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ اللّهِ مِنْ أَوْلِيَاء} [(٢٠) سورة هود]، وتكون جملة: {يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ} اعتراضية.

وقوله: {أُوْلَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُواْ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ} [(٢١) سورة هود] أي: خسروا أنفسهم لأنهم أُدخلوا ناراً حامية، فهم معذبون فيها لا يفتّر عنهم من عذابها طرفة عين، كما قال تعالى: {كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا} [(٩٧) سورة الإسراء]، {وَضَلَّ عَنْهُم} أي: ذهب عنهم، {مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ} من دون الله من الأنداد والأصنام فلم تُجدِ عنهم شيئاً، بل ضرتهم كل الضرر، كما قال تعالى: {وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاء وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ} [(٦) سورة الأحقاف]، وكقوله: {إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُواْ مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ} [(١٦٦) سورة البقرة]، إلى غير ذلك من الآيات الدالة على خسرهم ودمارهم، ولهذا قال: {لاَ جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الآخِرَةِ هُمُ الأَخْسَرُونَ} [(٢٢) سورة هود]، يخبر تعالى عن مآلهم أنهم أخسر الناس صفقة في الدار الآخرة؛ لأنهم استبدلوا الدركات عن الدرجات، واعتاضوا عن نعيم الجنان بحميم آن، وعن شرب الرحيق المختوم بسموم وحميم وظل من يحموم، وعن الحور العين بطعام من غسلين، وعن القصور العالية بالهاوية، وعن قرب الرحمن ورؤيته بغضب الديّان وعقوبته، فـ{لاَ جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الآخِرَةِ هُمُ الأَخْسَرُونَ}.

قال الخليل بن أحمد وسيبويه: إن قوله: {لاَ جَرَمَ} كلمة واحدة بمعنى حقاً، وقال بعض أهل العلم: إن معنى {لاَ جَرَمَ}، أي: لابد، ولما كثر استعمالها صارت بمعنى حقاً، وبعضهم يقول: {لاَ جَرَمَ} بمعنى لا منْع، لا صرْف، وصارت تستعمل بمعنى حقاً.

(مسألة) من الموصول لفظاً والمفصول معنى قول الله –تبارك وتعالى-: {فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * الَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُواْ إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ} [(٨١-٨٢) سورة الأنعام]

وقول الله –عز وجل-: {قَالَت امْرَأَةُ الْعَزِيزِ الآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَاْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ} [(٥١) سورة يوسف] إلى قوله: {ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللّهَ لاَ يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ} [(٥٢) سورة يوسف].

وقوله –عز وجل-: {قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ} [(٣٤) سورة النمل].

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

(مسألة) الفرق بين كلمة الخاسرين والأخسرين أن الأخسر أفعل تفضيل، أي أنه قد بلغ في الخسران غايته وأما الخاسر فليس كذلك، ولهذا جاء بضمير الفصل "هم" بين طرفي الكلام في قوله: {هُمُ الأَخْسَرُونَ}؛ لأن ذلك يفيد تقويته، ودخول "أل" يدل على أنهم حققوا الوصف الكامل من الخسارة.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة هود (٤)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله- في تفسير قوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَى رَبِّهِمْ أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ * مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالأَعْمَى وَالأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً أَفَلا تَذَكَّرُونَ} [سورة هود(٢٣-٢٤)].

لما ذكر تعالى حال الأشقياء ثنّى بذكر السعداء، وهم الذين آمنوا وعملوا الصالحات، فآمنت قلوبهم وعملت جوارحهم الأعمال الصالحة قولاً وفعلاً من الإتيان بالطاعات وترك المنكرات، وبهذا ورثوا الجنات، المشتملة على الغرف العاليات، والسرر المصفوفات، والقطوف الدانيات، والفرش المرتفعات، والحسان الخيرات، والفواكه المتنوعات، والمآكل المشتهيات، والمشارب المستلذات، والنظر إلى خالق الأرض والسماوات، وهم في ذلك خالدون لا يموتون ولا يهرمون، ولا يمرضون ولا ينامون، ولا يتغوطون، ولا يبصقون، ولا يتمخطون، إن هو إلا رشح مسكٍ يعرقون.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: **{إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَى رَبِّهِمْ}** ذكر الإخبات مع الإيمان والعمل الصالح، والإخبات من جملة الأعمال الصالحة؛ لأنه لا يخلو من أن يكون عملاً يتصل بالقلب أو يتصل بالجوارح، وفُسر الإخبات بالإنابة، وفسر بالخضوع، وفسره كثيرون بالخشوع، وفُسر بالسكون، وهي معانٍ متقاربة، وبعضهم قال: هو بمعنى الخشوع والطمأنينة، جمعاً بين الأقوال، وكبير المفسرين أبو جعفر بن جرير -رحمه الله- يفسره بالخشوع والتواضع، وهو قريب من الذي قبله، ومن أهل العلم من يرجع معانيه إلى التواضع والسكون كالحافظ ابن القيم -رحمه الله-، وهذه المعاني لا منافاة بينها، فالمُخبِت يكون خاشعاً متواضعاً مطمئناً ساكناً، وعُدِّي بـــ "إلى"؛ لأن قوله: **{وَأَخْبَتُوا}** فعل ضُمن معنى فعل آخر يصح تعديته بهذا الحرف وهو "إلى"، وتضمين الفعل معنى الفعل أبلغ من القول بتضمين الحرف معنى الحرف، فـــ **{وَأَخْبَتُوا إِلَى رَبِّهِمْ}** يكون قد ضمن معنى التواضع والطمأنينة، **{وَأَخْبَتُوا إِلَى رَبِّهِمْ}** يعني سكنوا إلى ربهم، أنابوا إلى ربهم، تواضعوا إلى ربهم، -والله أعلم-.

ثم ضرب تعالى مثل الكافرين والمؤمنين فقال: {مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ} أي: الذين وصفهم أولاً بالشقاء، والمؤمنين بالسعادة، فأولئك كالأعمى والأصم، وهؤلاء كالبصير والسميع، فالكافر أعمى عن وجه الحق في الدنيا والآخرة، لا يهتدي إلى خير ولا يعرفه، أصم عن سماع الحجج فلا يسمع ما ينتفع به، {وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ} [سورة الأنفال(٢٣)] **الآية، وأما المؤمن ففطِنٌ ذكي لبيب بصير بالحق، يميّز بينه وبين الباطل، فيتبع الخير ويترك الشر، سميع للحجة يفرق بينها وبين الشبهة، فلا يروج عليه باطل، فهل**

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

يستوي هذا وهذا أفلا تذكرون؟، أفلا تعتبرون فتفرقون بين هؤلاء وهؤلاء؟، كما قال في الآية الأخرى: {لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ} [سورة الحشر(٢٠)]، وكقوله: {وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ * وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ * وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ * وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ * إِنْ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ * إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ} [سورة فاطر(١٩ - ٢٤)].

ذكر الله -عز وجل- أربع أوصاف، {كَالأَعْمَى وَالأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ} وهذه الأوصاف ترجع إلى طائفتين لا إلى أربع طوائف، وذلك أن الواو عاطفة عطفت صفة على صفة لموصوف واحد، فالفريق الأول وهم الكفار كالأعمى والأصم، والصفات قد تتابع إما بالعطف بالواو أو بإسقاطها ويكون الموصوف واحداً، كقوله -تبارك وتعالى-: {سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى * الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى} [سورة الأعلى(١-٢)]، ولم يذكر الواو، {وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى}[سورة الأعلى(٣)] جاء بالواو {فَهَدَى * وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى} [سورة الأعلى(٣-٤)]، وقول الشاعر:

هو الملك القرن وابن الهمام *** وليث الكتيبة في المزدحم

كل هذا يرجع إلى موصوف واحد، والأمثلة على هذا كثيرة جداً في كلام الله -عز وجل- وفي كلام العرب.

{كَالأَعْمَى وَالأَصَمِّ} هذا مثل لطائفة واحدة، وإذا كان موصوفاً بالصمم فمعنى ذلك أنه موصوف بأنه أبكم؛ لأن الإنسان إذا كان لا يسمع منذ نشأته وولادته فإنه لا يمكن أن يتكلم، فالصُّم هؤلاء ليس بألسنتهم علة، وإنما العلة في أسماعهم، ولذلك إذا كان الصغير فيه بطءٌ في الكلام فإن أول ما يلتفت إليه هو السمع، فقد يكون سمعه ضعيفاً فلا يصل إليه كثير من الكلام الذي يقوله المتكلمون عنده، فيتأخر في الكلام، وإذا كان لا يسمع بالكلية فعندئذ لا يمكن أن يتكلم، فهذا الإنسان الذي لا يبصر ولا يتكلم ولا يسمع شيئاً كيف يكون تعلمه؟، والله -عز وجل- امتن على عباده بأن جعل لهم السمع والأبصار والأفئدة، فالسمع والبصر ميزابان يصبان في القلب، هذا في عالم المشاهدات، وهذا في عالم الأصوات والمسموعات، إنما المعارف ترجع إلى هذا وهذا، يعني الإنسان إما أن يقرأ شيئاً أو يراه أو يشاهده أو يسمعه -وإن كان السمع أكثر من البصر- لكن إما يكون تحصيله من جهة السمع وإما من جهة البصر، فهذا لا سمع ولا بصر، فكيف يرى دلائل عظمة الله -عز وجل-، وكيف يسمع آياته؟، لا يمكن أن يحصل له شيء من ذلك، فهؤلاء بهذه المنزلة، الذين لا يفقهون عن الله -عز وجل-، ويعرضون عن آياته، هذا هو الصمم والعمى الحقيقي، وهو أعظم وأشد ممن ابتلاه الله -عز وجل- بحاسته، وقد يكون مؤمناً تقياً أعظم إيماناً وتُقىً من كثير من المبصرين الذي أعطاهم الله -عز وجل- آلة السمع وآلة البصر، كما هو مشاهد، فهنا هذه الوصفان الأولان لفريق الكفار، {كَالأَعْمَى وَالأَصَمِّ}، أعمى عن رؤية الحق ودلائله، وبراهينه، وآياته المشهودة الدالة على وحدانية الله -عز وجل-، وأصم لا يسمع الآيات، ولا ينتفع بها، والفريق الآخر البصير والسميع {هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً}، والمقصود بالمثل الصفة؛ لأن المثل يأتي لمعانٍ متعددة منها الصفة كما في هذا الآية، وكما في قوله تعالى: {مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ} [سورة الرعد(٣٥)] أي: صفة الجنة، وهو أحد الأقوال أيضاً في قوله تعالى: {مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَاراً} [سورة البقرة(١٧)] أي: صفتهم، والله أعلم.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

{وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ * أَنْ لا تَعْبُدُوا إِلاَّ اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ * فَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلاَّ بَشَراً مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ} [سورة هود(٢٥-٢٧)].

يخبر تعالى عن نوح -عليه السلام-، وكان أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض من المشركين عبدة الأصنام أنه قال لقومه: {إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ} أي: ظاهر النذارة لكم من عذاب الله إن أنتم عبدتم غير الله؛ فلهذا قال: {أَنْ لا تَعْبُدُوا إِلاَّ اللَّهَ}.

وقوله: {إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ} أي: إن استمررتم على ما أنتم عليه عذبكم الله عذاباً أليماً موجعاً شاقاً في الدار الآخرة.

قول الله -عز وجل-: {وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ} الإرسال مضمن معنى القول، أي: أنه أرسله إليهم فقال لهم: {إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ}، ومعلوم أن الرسل -عليهم الصلاة والسلام- جاءوا بالبشارة والنذارة، فهو يبشر المؤمنين وينذر الكافرين، وهذا كثير في القرآن، واقتصر على الإنذار لأنه يمكن أن يكون من باب الاكتفاء، اكتفى بذكر أحد القبيلين أو الطرفين؛ ليدل بذلك على الآخر، كقوله -تبارك وتعالى-: {سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ} [سورة النحل(٨١)] أي: والبرد، وكقوله -تبارك وتعالى- في أحد الأقوال في تفسير الآية: {فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَى} [سورة الأعلى(٩)] أي: وإن لم تنفع، فذكر أشرف الاحتمالين، {إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ}، ويمكن أن يكون ذكر الإنذار هنا باعتبار أن هؤلاء في غاية المكابرة، والإعراض، والجحود فهو ينذرهم، كما قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((أنا النذير العريان))[1]، فاقتصر على هذا، فتارة يحسن الإنذار وتارة التبشير وتارة الجمع بين هذا وهذا، {إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ * أَنْ لا تَعْبُدُوا إِلاَّ اللَّهَ}، فهذا بدل من قوله: {إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ * أَنْ لا تَعْبُدُوا إِلاَّ اللَّهَ}، وقيل غير ذلك، وأما قوله: {إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ} فـــ(إن) هنا تفيد التعليل، فهو يأمرهم وينهاهم خوفاً عليهم وشفقة من أن يمسهم عذاب الله -تبارك وتعالى-.

{فَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ}: والملأ هم السادة والكبراء من الكافرين منهم.

الملأ هنا من الكافرين، وإلا فالملأ لا يلزم أن يكونوا كفاراً، فالملأ هم الأشراف والكبراء، وغالباً ما يكون هؤلاء هم أعداء الرسل -عليهم الصلاة والسلام.

{مَا نَرَاكَ إِلاَّ بَشَراً مِثْلَنَا} أي: لست بملَك ولكنك بشر، فكيف أُوحي إليك من دوننا.

هذه الآية كقوله: {أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا} [سورة المؤمنون(٤٧)] في موسى وهارون -عليهما الصلاة والسلام-، وقوله: {أَبَعَثَ اللّهُ بَشَرًا رَّسُولاً} [سورة الإسراء(٩٤)]، وقوله: {قَالُوا لَوْ شَاء رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً} [سورة فصلت(١٤)]، والآيات في هذا كثيرة، فهم يتعجبون ويستنكفون أن يكون الله -تبارك وتعالى- قد بعث بشراً، فرد الله -عز وجل- عليهم في مواضع من كتابه فقال: {وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ} [سورة الفرقان(٢٠)]، وأخبر عن الذين بعثهم أنهم رجال يوحي إليهم، وكذلك أخبر أن الناس لا يطيقون مشاهدة الملَك فقال: {قُل لَّوْ كَانَ فِي الأَرْضِ مَلآئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ} [سورة

---

١ - رواه البخاري من حديث أبي موسى الأشعري -رضي الله عنه- برقم (٦١١٧)، كتاب الرقائق، باب الانتهاء عن المعاصي، ومسلم برقم (٢٢٨٣)، كتاب الفضائل، باب شفقته -صلى الله عليه وسلم- على أمته.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الإسراء(٩٥)]؛ لأن الناس إن رأوا الملَك لم يستطيعوا الأخذ عنه، {لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاء مَلَكًا رَّسُولاً}، وقال الله -عز وجل-: {وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلاً} [سورة الأنعام(٩)]؛ أي: لأجل أن يستطيعوا التلقي عنه، فالله -عز وجل- أعلم وأحكم، وليس لأحد أن يقترح على الله -تبارك وتعالى-.

ثم {مَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا} كالباعة والحاكة وأشباههم، ولم يتبعك الأشراف ولا الرؤساء منا، ثم هؤلاء الذين اتبعوك.

هذا كقوله -تبارك وتعالى- في قصة نوح -عليه الصلاة والسلام-: {أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ} [سورة الشعراء(١١١)]، فهم يستنكفون ويقولون: هؤلاء الأراذل هم الذين اتبعوك، وهؤلاء في مؤخرة الناس، وفي حاشيتهم، ليس لهم شأن ولا قيمة، فكيف سبقوا إلى هذا الذي جئت به، {لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ} [سورة الأحقاف(١١)]، فنحن أهل العقول والنظر البعيد والتقدم في كل خير وفضيلة، فكيف يسبق إليك هؤلاء الأعبُد والبسطاء والأراذل الحقراء ويكون الذي جئت به هو الحق؟ يظنون أن المقاييس في اتباع الحق ومعرفته هي بما يملكه الإنسان من أموال، وما يتنعم به في هذه الحياة الدنيا، لكن الأمر عند الله -عز جل- يختلف عن هذا، وهذا الاستنكاف وقع في قوم نوح، ووقع أيضاً للذين بُعث فيهم النبي -صلى الله عليه وسلم-، وقالوا له: أبْعِد عنا، واطرد عنا هؤلاء النتْنى.

ثم هؤلاء الذين اتبعوك لم يكن عن تروٍّ منهم ولا فكر ولا نظر، بل بمجرد ما دعوتهم أجابوك فاتبعوك؛ ولهذا قالوا: {وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ}.

ما ذكره الحافظ ابن كثير -رحمه الله- في اتبعك هؤلاء الأراذل {بَادِيَ الرَّأْيِ} أي: من غير تعمق ولا نظر ولا روية ولا فكر، وإنما دعوتهم إلى شيء فهرولوا خلفك، ليس عندهم عمق في النظر والتقصي والتفكير، والتمييز بين معدن الحق ومعدن الباطل؛ ولذلك اتهموهم ولمزوهم في بعض الآيات، ويدل عليه أنهم إنما اتبعوه لأشياء يريدونها فقط، ليأكلوا عنده طعاماً أو يجدوا عنده شيئاً من متاع الدنيا، ولم يكونوا مخلصين صادقين في اتباعهم لهذا النبي -عليه الصلاة والسلام-، هكذا في زعمهم؛ ولهذا يأتي الرد عليهم بأنه لا يعلم ما في نفوسهم، وأن حسابهم إلى الله -تبارك وتعالى-، طبعاً ويحتمل أن يكون المراد بقول: {بَادِيَ الرَّأْيِ} أي: فيما يبدو لنا من النظر والرأي {وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا} أي: فيما يبدو لنا، فهم ليسوا بهذا المستوى من الأدب والتواضع حتى يتكلموا بهذه الطريقة.

{بَادِيَ الرَّأْيِ} أي: في أول بادئ الرأي، {وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ} يقولون: ما رأينا لكم علينا فضيلة في خلْق ولا خُلُق ولا رزق ولا حال لمّا دخلتم في دينكم هذا، {بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ} أي: فيما تدعونه لكم من البر والصلاح والعبادة والسعادة في الدار الآخرة إذا صرتم إليها، هذا اعتراض الكافرين على نوح -عليه السلام- وأتباعه، وهو دليل على جهلهم وقلة علمهم وعقلهم، فإنه ليس بعارٍ على الحق رذالة من اتبعه، فإن الحق في نفسه صحيح سواء اتبعه الأشراف أو الأراذل، بل الحق الذي لا شك فيه أن أتباع الحق هم الأشراف ولو كانوا فقراء، والذين يأبونه هم الأراذل ولو كانوا أغنياء.

قول الحافظ ابن كثير -رحمه الله-: "**ما رأينا لكم علينا فضيلة في خلْق ولا خُلُق ولا رزق ولا حال، لمّا دخلتم في دينكم هذا**"، أي: ما رأيناكم تميزتم حينما دخلتم في هذا الدين، ويمكن أن يكون المعنى: أنه ما

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

المؤهل لكم أن تتقدموا بهذا الفضل فتحصل لك النبوة والرسالة وأنت بشر لا نراك تتميز علينا، ولا نرى لهؤلاء الذين تزعم أنهم صاروا إلى الحق، لا نرى لهم أي فضل علينا، فهم يخاطبون النبي -عليه الصلاة والسلام- ومن معه من أهل الإيمان، فيقولون: ليس لكم منقبة ومزية حتى يحصل لكم مثل هذا الأمر الكبير الذي تقولون إنكم عليه، من أنك يوحى إليك، وأن الله اختارك من بين سائر الخلق، وأن هؤلاء الذين اتبعوك لهم المنازل العالية عند الله -عز وجل-، ما نرى شيئاً فضلكم علينا، لمّا دخلتم في الإيمان ما رأينا شيئاً حصل، {بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ} أنتم تقولون على الله هذا ولكن لا حقيقة له.

ثم الواقع غالباً أن ما يتبع الحقَّ ضعفاءُ الناس، والغالب على الأشراف والكبراء مخالفته، كما قال تعالى: {وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ} [سورة الزخرف(٢٣)].

كما قال تعالى: {وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ}، **ولما سأل هرقل ملك الروم أبا سفيان صخر بن حرب عن صفات النبي -صلى الله عليه وسلم- قال في ما قال: أشراف الناس اتبعوه أو ضعفاؤهم؟ قال: بل ضعفاؤهم، فقال هرقل: هم أتباع الرسل.**

وقولهم: {بَادِيَ الرَّأْيِ} **ليس بمذمة ولا عيب؛ لأن الحق إذا وضح لا يبقى للرأي ولا للفكر مجال، بل لا بد من اتباع الحق، والحالة هذه لكل ذي زكاء وذكاء، بل لا يفكر هاهنا إلا غبي أو عيِيٌّ، والرسل -صلوات الله وسلامه عليهم أجمعون- إنما جاءوا بأمر جلي واضح.**

وقوله: {وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ}، **هم لا يرون ذلك؛ لأنهم عميٌ عن الحق لا يسمعون ولا يبصرون، بل هم في ريبهم يترددون، وفي ظلمات الجهل يعمهون، وهم الأفاكون الكاذبون الأقلون الأرذلون، وهم في الآخرة هم الأخسرون.**

{قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ} [سورة هود(٢٨)].

يقول تعالى مخبراً عما رد به نوح -عليه السلام- على قومه في ذلك: {أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي} **أي: على يقين وأمر جلي ونبوة صادقة، وهي الرحمة العظيمة من الله به وبهم،** {فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ} **أي: خفيت عليكم فلم تهتدوا إليها ولا عرفتم قدرها، بل بادرتم إلى تكذيبها وردها،** {أَنُلْزِمُكُمُوهَا} **أي: نغصبكم بقبولها** {وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ}.

هذا التفسير الذي ذكره الحافظ ابن كثير -رحمه الله- هو من أحسن ما قيل في معنى الآية، وهو بمعنى قول ابن جرير -رحمه الله-: {أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ} قال: أي على يقين وأمر جلي ونبوة صادقة، {أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنتُ عَلَى بَيِّنَةٍ}، ما هي البينة؟، {وَآتَانِي رَحْمَةً}، ما هذه الرحمة؟ فمن أهل العلم من يقول: البينة: هي النبوة، والرحمة أيضاً هي النبوة، {كُنتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي} أي: أن الله أوحى إليّ {وَآتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ} بهذا الإيحاء، والنبوة، ومن أهل العلم من يقول: {كُنتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي} أي: على أمر جلي بيّن واضح لا لبس فيه ولا خفاء، على يقين، {وَآتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ} هذه الرحمة هي النبوة، وهذا المعنى هو الأقرب إلى السياق -والله تعالى أعلم-.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

{وَيَا قَوْمِ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالاً إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْماً تَجْهَلُونَ * وَيَا قَوْمِ مَنْ يَنصُرُنِي مِنْ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ أَفَلا تَذَكَّرُونَ} [سورة هود(٢٩-٣٠)].

يقول لقومه: {لا أَسْأَلُكُمْ} على نصحي لكم {مَالاً}: أجرة آخذها منكم، إنما أبتغي الأجر من الله -عز وجل-، {وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا}.

فقوله: {وَيَا قَوْمِ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالاً} يعني: لا آخذ عليه عرضاً من الدنيا، شيئاً من المال، أجرة أتقاضها منكم في سبيل هذا البلاغ والتعليم والدعوة إلى الله -عز وجل- والنصح، وهذا كثير في القرآن كقوله -تبارك وتعالى-: {قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ} [سورة سبأ(٤٧)]، وكقوله: {قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ} [سورة ص(٨٦)]، وهكذا في قوله: {قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَاء أَن يَتَّخِذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلًا} [سورة الفرقان(٥٥)]، {قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرَى لِلْعَالَمِينَ} [سورة الأنعام(٩٠)]، {وَيَا قَوْمِ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلاَ تَعْقِلُونَ} [سورة هود(٥١)] إلى غير ذلك من الآيات، وذلك أن الرسل -عليهم الصلاة والسلام- يعلمون الناس ولا يأخذون على ذلك شيئاً، فيؤخذ من هذه الآية ونظائرها أن الإنسان ينبغي له أن يدعو إلى الله -عز وجل- ولا يأخذ في مقابل دعوته لهم شيئاً من الأجر، ويوجد في بعض البلاد الأعجمية في كل مسجد صندوق للدعوة، تقوم عليه لجنة من المسجد لشئون المسجد، فيؤتى أحياناً ببعض الدعاة ممن يرتاحون له؛ لأنه يذكر لهم بعض الأشياء الطريفة أو القصص أوالحكايات وما أشبه ذلك، فيجلس معهم ساعة أو نحو ساعة بأكثر من ألفي دولار، مع أنها بلاد فقيرة جداً، متوسط دخل الإنسان فيها ما يصل إلى ثلاثمائة ريال، وللأسف الشديد ابتلينا بشيء من هذا فتجد الدرس الواحد أو المحاضرة تباع بأربعمائة ألف ريال، وربما يذهب الواحد مع حملة بمائة ألف، ومثل هذا المفروض أنه لا يقع مهما تأول الناس في هذه الأشياء، ومن فعل ذلك فثقوا تماماً أن الكلمات تخرج ميتة من فمه، ويذهب النور الذي على كلامه، ولا ينتفع الناس بما يقول إطلاقاً، أيضاً من أراد أن يعلم الناس القرآن لا يأخذ على تعليمه أجراً، والعلماء تكلموا على هذه المسألة هل يجوز له أن يشترط أو لا يشترط، إلا من اضطر فالضرورات لها أحكامها، حتى لا يتعطل التعليم، بخلاف ما يعطاه من بيت مال المسلمين إذا كان قد انقطع لهذا وتفرغ له، فإن هذا يختلف عن الأجرة، أما أن يشارط الناس ويقول: لا أعلّم إلا بكذا العلوم الشرعية، أو لا أعلّم القرآن إلا بكذا، فالمفروض أن تبذل مجاناً، ومثل هذا ينبغي للإنسان أن يترفع عنه، وقد قال الشيخ محمد الأمين الشنقيطي -رحمه الله-: " قوله تعالى: {وَيَا قَوْمِ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالاً إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ} الآية، ذكر تعالى في هذه الآية الكريمة عن نبيه نوح -عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام-، أنه أخبر قومه أنه لا يسألهم مالاً في مقابلة ما جاءهم به من الوحي والهدى، بل يبذل لهم ذلك الخير العظيم مجاناً من غير أخذ أجرة في مقابله، وبيّن في آيات كثيرة أن ذلك هو شأن الرسل -عليهم صلوات الله وسلامه-، كقوله في سبأ عن نبينا -صلى الله عليه وسلم-: {قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ} الآية، وقوله فيه أيضاً في آخر ص: {قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ}، وقوله: {أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ} [سورة الطور(٤٠)، وسورة القلم(٤٦)]، وقوله في الفرقان: {قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَاء أَن يَتَّخِذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلًا}، وقوله في الأنعام: {قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرَى لِلْعَالَمِينَ}، وقوله عن هود في سورة

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

هود: {يَا قَوْمِ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي} الآية، وقوله في الشعراء عن نوح وهود وصالح ولوط وشعيب -عليهم وعلى نبينا الصلاة والسلام-: {وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ} [سورة الشعراء(١٠٩)]، وقوله تعالى عن رسل القرية المذكورة في يس: {اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ * اتَّبِعُوا مَن لاَّ يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا}[سورة يـــس(٢٠-٢١)] الآية، وقد بيّنا وجه الجمع بين هذه الآيات المذكورة وبين قوله تعالى: {قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى} [سورة الشورى(٢٣)]، في كتابنا "دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب" في سورة سبأ في الكلام على قوله تعالى: {قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ} [سورة سبأ (٤٧)]، ويؤخذ من هذه الآيات الكريمة أن الواجب على أتباع الرسل من العلماء وغيرهم أن يبذلوا ما عندهم من العلم مجاناً من غير أخذ عوض عن ذلك، وأنه لا ينبغي أخذ الأجرة على تعليم كتاب الله تعالى، ولا على تعليم العقائد والحلال والحرام، ويعتضد ذلك بأحاديث تدل على نحوه، فمن ذلك ما رواه ابن ماجه والبيهقي والروياني في مسنده عن أبيّ بن كعب -رضي الله تعالى عنه- قال: علمت رجلاً القرآن فأهدى لي قوساً، فذكرت ذلك للنبي -صلى الله عليه وسلم- فقال: ((إن أخذتها أخذت قوساً من نار))، فرددتها[٢]، قال البيهقي وابن عبد البر في هذا الحديث: هو منقطع، أي بين عطية الكلاعي وأبيّ بن كعب -رضي الله تعالى عنه-، وكذلك قال المزي، وتعقبه ابن حجر: بأن عطية ولد في زمن النبي -صلى الله عليه وسلم-، وأعله ابن القطان بأن راويه عن عطية المذكور هو عبد الرحمن بن سلم وهو مجهول، وقال فيه ابن حجر في التقريب: شامي مجهول، وقال الشوكاني في نيل الأوطار: وله طرق عن أبيّ -رضي الله تعالى عنه-، قال ابن القطان: لا يثبت منها شيء، قال الحافظ: وفي ما قاله نظر. وذكر المزي في الأطراف له طرقاً منها: أن الذي أقرأه أبيّ هو الطفيل بن عمرو، ويشهد له ما أخرجه الطبراني في الأوسط عن الطفيل بن عمرو الدوسي -رضي الله تعالى عنه- قال: أقرأني أبيّ بن كعب القرآن فأهديت له قوساً، فغدا إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- وقد تقلدها، فقال النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((تقلدها من جهنم))[٣] الحديث، وقال الشوكاني أيضاً: وفي الباب عن معاذ -رضي الله تعالى عنه- عند الحاكم والبزار بنحو حديث أبيّ، وعن أبي الدرداء -رضي الله تعالى عنه- عند الدارمي بإسناد على شرط مسلم بنحوه أيضاً، ومن ذلك ما رواه أبو داود وابن ماجه عن عبادة بن الصامت -رضي الله تعالى عنه- قال: علّمت ناساً من أهل الصفة الكتاب والقرآن فأهدى إليّ رجل منهم قوساً فقلت: ليس بمالٍ، أرمي بها في سبيل الله -عز وجل-، لآتين رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فلأسألنه، فأتيته فقلت: يا رسول الله أهدى إليّ رجل قوساً ممن كنت أعلمه الكتاب

---

٢ - رواه ابن ماجه برقم (٢١٥٨)، كتاب التجارات، باب الأجر على تعليم القرآن، وصححه الألباني في إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل (٣١٦/٥)، برقم (١٤٩٣).

٣ - رواه الطبراني في الأوسط (١٣٩/١)، برقم (٤٣٩)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ومنبع الفوائد: "عبد الله بن سليمان بن عمير ولم أجد من ترجمه ولا أظنه أدرك الطفيل" (١١١/٤)، برقم (٦٤٤٦).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

والقرآن، وليست بمال، أرمي عليها في سبيل الله، فقال: ((إن كنت تحب أن تطوق طوقاً من نار فاقبلها))[٤]، وفي إسناده المغيرة بن زياد الموصلي، قال الشوكاني: وثّقه وكيع ويحيى بن معين، وتكلم فيه جماعة، وقال الإمام أحمد: ضعيف الحديث حدّث بأحاديث مناكير، وكل حديث رفعه فهو منكر، وقال أبو زرعة الرازي: لا يحتج بحديثه، وقال فيه ابن حجر في التقريب: المغيرة بن زياد البجلي أبو هشام أو هاشم الموصلي صدوق له أوهام، وهذا الحديث رواه أبو داود من طريق أخرى ليس فيها المغيرة المذكور، حدثنا عمرو بن عثمان وكثير بن عبيد قالا: حدثنا بقية حدثني بشر بن عبد الله بن بشار، قال عمرو: وحدثني عبادة بن نسي عن جنادة بن أبي أمية عن عبادة بن الصامت -رضي الله تعالى عنه- نحو هذا الخبر، والأول أتم، فقلت: ما ترى فيها يا رسول الله؟ -صلى الله عليه وسلم- فقال: ((جمرة بين كتفيك تقلدتها أو تعلقتها))[٥]. انتهى منه بلفظه، وفي سند هذه الرواية بقية بن الوليد وقد تكلم فيه جماعة ووثقة آخرون إذا روى عن الثقات، وهو من رجال مسلم، وأخرج له البخاري تعليقاً، وقال فيه ابن حجر في التقريب: صدوق كثير التدليس عن الضعفاء، والظاهر أن أعدل الأقوال فيه أنه إن صرح بالسماع عن الثقات فلا بأس به، مع أن حديثه هذا معتضد بما تقدم، وبما سيأتي إن شاء الله تعالى.

ومن ذلك ما رواه الإمام أحمد والترمذي عن عمران بن حصين -رضي الله تعالى عنهما- عن النبي -صلى الله عليه وسلم- أنه قال: ((اقرءوا القرآن واسألوا الله به، فإنّ مِن بعدكم قوماً يقرءون القرآن يسألون به الناس))، قال الترمذي في هذا الحديث: ليس إسناده بذلك[٦].

وكل الأحاديث الواردة في هذا لا تخلو من مقال؛ ولهذا ذكر عامة أهل العلم أن ما أخذه الإنسان من غير استشراف نفس فلا إشكال فيه، وإنما الإشكال في الاشتراط، ومسألة أخذ الأجرة على تعليم القرآن ألف فيها بعض أهل العلم رسائل مستقلة، وذهب كثير من الفقهاء إلى أنه يجوز ذلك للمصلحة، يعني مصلحة التعليم وإذا كان الإنسان منقطعاً لهذا الغرض، ولا يجد بداً من هذا، والعلماء -رحمهم الله- حتى الذين منعوا كالحنفية وتشددوا في هذا، المتأخرون منهم لانوا في هذه المسألة، فلا ينبغي للإنسان أن يشترط هذا، فإن أعطي وكان محتاجاً أخذ، وإن كان مستغنياً فلا يأخذ، حتى في تعليم الحديث ونحو ذلك، وقد تكلم بعض أهل العلم ولمز من كان لا يحدّث إلا بمقابل؛ لفقره.

---

٤ - رواه أبو داود برقم (٣٤١٦)، كتاب البيوع، باب في كسب المعلم، وابن ماجه برقم (٢١٥٧)، كتاب التجارات، باب الأجر على تعليم القرآن، والحاكم في المستدرك (٤٨/٢)، برقم (٢٢٧٧)، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وصححه الألباني في صحيح أبي داود برقم (٢٩١٥).

٥ - رواه أبو داود برقم (٣٤١٧)، كتاب البيوع، باب في كسب المعلم، وأحمد في المسند (٤٢٦/٣٧)، برقم (٢٢٧٦٦)، وقال محققوه: إسناده حسن، وصححه الألباني في صحيح أبي داود برقم (٢٩١٦).

٦ - رواه الترمذي برقم (٢٩١٧)، كتاب فضائل القرآن عن رسول الله -صلى الله عليه و سلم-، باب ما جاء فيمن قرأ حرفا من القرآن ما له من الأجر، وأحمد في المسند (١٤٦/٣٣) برقم (١٩٩١٧)، وقال محققوه: إسناده حسن لغيره، وحسنه الألباني في صحيح الجامع برقم (٦٤٦٧).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

{وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا}، كأنهم طلبوا منه أن يطرد المؤمنين عنه احتشاماً ونفاسة منهم أن يجلسوا معهم، كما سأل أمثالهم خاتم الرسل -صلى الله عليه وسلم- أن يطرد عنهم جماعة من الضعفاء، ويجلس معهم مجلساً خاصاً، فأنزل الله تعالى: {وَلاَ تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ}[سورة الأنعام(٥٢)] الآية.

وقال في قصة نوح -عليه الصلاة والسلام-: **{إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ * وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ}** [سورة الشعراء(١١٣-١١٤)]، يقولون: إن هؤلاء غير صادقين في اتباعهم لك وإيمانهم، وإنما يريدون شيئاً من عرض الدنيا، على أحد الأقوال في تفسيرها، فهو يقول: حسابهم على الله -تبارك وتعالى-، وليس ذلك إليّ، هذا هو المشهور، ومن أهل العلم كابن القيم -رحمه الله- من يقول: إن المقصود بقوله في هذه الآية: **{اللّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنفُسِهِمْ}** [سورة هود(٣١)] أن المراد أنه أعلم بهؤلاء أنهم أهل لقبول الحق واتباعه؛ لما فيهم من التجرد، بخلاف هؤلاء من أصحاب الرئاسات فهم يحسبون حسابات طويلة لما يفوتهم بسبب اتباع الحق من ذهاب رئاساتهم وأموالهم؛ وللشيخ عبد الرحمن المعلمي اليماني -رحمه الله- في كتاب التنكيل كلام نفيس، في القسم الأخير منه الذي أفرد بكتاب مستقل سمي بالقائد إلى تصحيح العقائد، ذكر جملة من الأمور التي يردّ الإنسان بها الحق، فذكر من ذلك، قال: ومنهم من له في الباطل شهرة ومعيشة، فهو لا يريد أن تذهب عنه هذه الشهرة والأضواء والنجومية، ويصير في النهاية آخر الناس، كان مغنياً مهرجاً ممثلاً مخرجاً فناناً لاعباً، فإذا تاب وصلح حاله واستقام، تبقى المؤهلات الحقيقة، ماذا عنده من العلم والعمل، متخرج من رابع ابتدائي، فيبقى في المحل الطبيعي فهو يحسب حساباته، من أين يأتيه الدخل والأموال والملايين، والسيارات والهدايا والعطايا، من أين تأتيه، وهو ربما ما يصلح يوزع إعلانات، ما عنده شيء، لا يحسن القراءة، وقد سمعت أحدهم يتكلم وهو مغضب على تلامذته يقول: تربينا مع الكلاب، يعني يقول: نحن عصاميون، نحن الذين بنينا أنفسنا بأنفسنا حتى وصلنا إلى ما وصلنا إليه، وهو لاعب، يقول: وصلنا إلى هذا المجد بجهد ومجاهدة وصبر، نشأنا مع الكلاب، ولا يعرف وجه الفخر، فمن الناس من يكون له في الباطل شهرة ومعيشة فيرد الحق بسبب هذا، فهؤلاء من أصحاب الرئاسات والملأ رأوا أنهم إذا اتبعوا الحق سيستوون مع هؤلاء الضعفاء، وتذهب عنهم الأموال والرئاسات؛ ولذلك تجد كبار شيوخ الطرق الصوفية الذين سخّروا الناس في إقطاعاتهم أو في مصالحهم أو يأخذون منهم أموالاً، وهكذا شيوخ الطوائف كالرافضة وغيرهم، يأخذون من الخمس ونحو هذا، هذا إذا اتبع الحق ستذهب هذه الأشياء كلها، وقد لا يجد له وظيفة بألفين وخمسمائة ريال، تذهب كل هذه الأشياء، بعدما كان عالماً معمماً، إذا رجع إلى الحق سيبقى من أجهل الناس في دين الله -عز وجل-، يحتاج يتعلم الحروف الهجائية، ويقرأ القرآن ويحفظ، ويتعلم الأربعين النووية، ويتعلم الأحاديث والمتون، يبدأ من الصفر، فهو ما عنده استعداد.

وقال تعالى: {وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولواْ أَهَؤُلاء مَنَّ اللّهُ عَلَيْهِم مِّن بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ} [سورة الأنعام(٥٣)] الآيات.

{وَلا أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْراً اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنفُسِهِمْ إِنِّي إِذاً لَمِنْ الظَّالِمِينَ} [سورة هود(٣١)].

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

يخبرهم أنه رسول من الله يدعو إلى عبادة الله وحده لا شريك له، بإذن الله له في ذلك، ولا يسألهم على ذلك أجراً، بل هو يدعو من لقيه من شريف ووضيع، فمن استجاب له فقد نجا، ويخبرهم أنه لا قدرة له على التصرف في خزائن الله، ولا يعلم من الغيب إلا ما أطلعه الله عليه، وليس هو بملَك من الملائكة، بل هو بشر مرسل مؤيد بالمعجزات، ولا أقول عن هؤلاء الذين تحتقرونهم وتزدرونهم إنهم ليس لهم عند الله ثواب على أعمالهم، {اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنفُسِهِمْ}، فإن كانوا مؤمنين باطناً كما هو الظاهر من حالهم فلهم جزاءً الحسنى، ولو قطع لهم أحد بشرٍّ بعدما آمنوا لكان ظالماً قائلاً ما لا علم له به.

قوله تعالى: {اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنفُسِهِمْ}، هل المراد أن هؤلاء يقصدون أنهم غير صادقين، فالله يقول: {اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنفُسِهِمْ} أو أن المقصود أن الله أعلم بما في أنفسهم ولذلك هداهم للحق، وفي قوله -تبارك وتعالى-: {اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنفُسِهِمْ}، استدل به من قال: إن الملائكة أفضل من البشر، وهي مسألة لا طائل تحتها، ولا ينبغي التشاغل بمثل هذه القضية، ولا يترتب على ذلك عمل، والذين قالوا: إن الصالحين من البشر أفضل من الملائكة احتجوا بحجج كقوله -تبارك وتعالى-: {وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُواْ لآدَمَ}[سورة البقرة(٣٤)] إلى آخر ما ذكر الله -عز وجل- من خبر آدم وتعليمه، وإقرار الملائكة لآدم بذلك، وهذه المسألة لا يترتب عليها عمل، لكن أشرت إليها؛ لأن هذا الموضع هو الذي يذكر فيه العلماء مثل هذه المسألة غالباً.

فائدة:

الرقية أمرها يختلف عن التعليم، فالرقية من باب الطب، وليست فيما نحن بصدده من التعليم للقرآن أو الدعوة إلى الله -عز وجل-، هي من باب الطب؛ ولذلك تجري أحكام الطب فيها، فيقال: الأصل في باب الرقية الإباحة ما لم تشتمل على محرم، فكل ما دلت التجربة على صحته في باب الرقية من تخصيص بعض الآيات لبعض الأشياء، إذا دلت التجربة على هذا فلا إشكال فيه، فهي من باب الطب، لكن الذين قالوا بالجواز وأطلقوا احتجوا بما ورد في الحديث من قوله -صلى الله عليه وسلم-: ((إن أحق ما أخذتم عليه أجراً كتاب الله))[٧]، والشاهد أنه لم يشترط عليهم في رقية الرجل، مع أن هذا لا يبرر ولا يعني بحال من الأحوال أن ينقطع الإنسان للرقية ويفتح عيادة في بيته، ويتوارد إليه الناس، ويكون طريقاً للتكسب بهذا الأسلوب الذي للأسف نراه اليوم، ويحصل فيه كثير من المخالفات، فمثل هذا لا يحسن أن يفعله الإنسان، فرق بين هذا وبين إنسان يرقي نفسه أو يرقي من حوله، أو طلب منه إنسان بصفة خاصة فرقاه أو نحو ذلك، وصلى الله على نبينا محمد.

---

٧ - رواه البخاري برقم (٥٤٠٥)، كتاب الطب، باب الشرط في الرقية بقطيع من الغنم.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com